روايات عبير



ماري ويبرلي

السرّ الدفين

٧٤

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE SNOW ON THE HILLS

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd
39 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - غريبان على الطريق

اسقطت قاليسا مكعب السكر في فنجان القهوة وراحت تراقب فقاقيع الهواء التي احدثتها. لا، لم يكن هذا مجرد خيال، فالشابان اللذان يركبان الدراجة النارية كانا يراقبانها باهتمام واضح.

ابدا معتادة على ذلك التصرف. تكرر الأمر يختلف هذه المرة، فنظراتهما [illegible] بالازعاج. المقهى كان صغيراً، وخلف الآلة الخشبية جلست فتاة [illegible]. وفي احدى الطاولات في الزاوية جلس رجل [illegible]

فكرت قاليسا في الرجل الذي كان مستغرقاً في الصحيفة الموجودة الى جواره اكثر من اي شيء آخر. ماذا يمكن ان تقول له ما دعت اليه المضايقة؟ من الأكيد انه سيعتبرها مجنونة. وكأنها كانت قلقة. فما تبقى من الطريق موحش ومنعزل، هذا ما تؤكده خريطتها ويؤكده الطريق الذي قطعت قبل قليل. هناك ما لا يقل عن ثلاثين ميلاً للوصول الى ديستورد هاوس. ثلاثون ميلاً من القيادة في اراض جبلية منعزلة قبل ان تصل الى مقصدها!

التفت اليها الرجل لبرهة وكأنه احس بنظراتها، ثم نظر باتجاه الشابين واخيراً الى صحيفته. خفق قلب قاليسا بشدة. ليس هناك امل يرجى منه. لعله اعتقد انها احبت تصرف الشابين اللذين اخذا الآن يصدران اصواتاً وكأنهما يتحدثان الى قطة، وهما يبتسمان. لقد اصبح طعم القهوة كريهاً. نهضت فجأة. حان وقت الذهاب. وكلما بكرت كلما كان افضل.

رأسها مصاب بالصداع منذ أن قطعت بيروت والطريق حتى شتورة عبر
- المنطقة المجهولة - طويلة وصعبة. ومن الأفضل لها أن تسرع في الوصول
إلى هناك. حملت حقيبتها وحقيبة يدها وغادرت المقهى دون أن تلتفت إلى
الخلف.

في الخارج، كان الطقس بارداً وبوادر غيوم ممطرة في السماء. التلال
المرتفعة كانت تبدو متعرّجة في ضوء الشمس الخافت، وكل شيء هادئ. في
موقف المقهى، شاهدت الدراجتين الناريتين وسيارة جاكوار أنيقة وسيارتها
الكورتينا الرمادية. جلست في مقعدها ووضعت السترة وحقيبة اليد في المقعد
المجاور... وأدارت المحرك. فكرت أنها ستكون سعيدة إذا ما انطلقت
وغادرت المكان قبل أن يخرج الشابان.

وما أن تحركت باتجاه الطريق حتى شاهدت باب المقهى يفتح، ورأت
الشابين يقفان للحظة على العتبة فأعطيا ظلاً أسود انعكس على ضوء المقهى
الساطع. ما زالا يضحكان. وبحركة غريزية أغلقت أبواب سيارتها من
الداخل ثم ضغطت بكامل ثقلها على دواسة البنزين.. فاستجابت
الكورتينا من الفور.

نزلت الطريق المنحدر بأسرع ما يمكنها. ربما كانت السرعة غير كافية
فالدراجات النارية قوية وسريعة جداً بالرغم من مظهرها المضحك.
انطلقت الدراجتان الناريتان خلفها. وأصابها شعور غريب بأن ما يحدث
قد يكون عقاباً لها على الخطة المقصودة التي جاءت لأجلها.

لكن الآن ليس وقت محاسبة الذات. المهم ألا تبقى في المقدمة، متقدمة
على الشابين. وكل شيء سيكون على ما يرام. الطريق الإسفلتي يمتد
كشريط ضيق متعرج، وفاليسا تتابعه بترقب وسرعة، ويداها الرطبتان
متمسكتان بمقود القيادة. لم تكن السائقة عصبية، وهي تعرف كيف تسيطر
على نفسها. لكن شيئاً ما كان في نظرات الشابين، اللذين لم يتجاوزا
العشرين من العمر، جعلها تشعر بالخوف.

فكرت بعاطفة الحب على تعبها عن الرجل الأسمر الذي كان في المقهى.
لقد كان جذاباً بشكل قاسٍ وغامض و... وفجأة سمعت هدير صوت
محركي الدراجتين خلفها تماماً. كان المنعطف قد حجبهما عنها. الآن
أصبحا مرئيين... ويقتربان، شابان يبحثان عن المشاكل، ويلاحقان

ملوّحين بقفازين سوداوين على مقربة من الجيد. أصبحا أقرب. يا الله
أين السيارة الأخرى، أو أية سيارة أخرى؟

مر الأول مسرعاً فاهتزت السيارة بعنف. كان أسلوبياً فعلاً. تمهل
الأول حتى وصلت السيارة إلى منعطف ضيق فخفف سرعته بحيث
اضطرت فاليسا بدورها إلى تخفيف السرعة. في حين كان الثاني خلفهما
يمنعها من محاولة الرجوع. أحست فاليسا برغبة جامحة في أن تطلق لسيارتها
العنان، لكنها أدركت أن ذلك لن يفيد. كانت الدراجة النارية ضخمة
بحيث لا تأبه بها السيارة، والطريق لا يسمح بالتجاوز، وسرعان ما حل
الصمت عندما سكنت المحركات.

تلفتت حولها في محاولة يائسة للبحث عن سلاح. عبثت أصابعها
المحمومة في حقيبة يدها، فاصطدمت بجسم فلزي بارد... إنه عطر
بخاخ، القارورة صغيرة، لكنها أفضل من لا شيء. كم من الوقت سيمر
قبل أن يحطما الأبواب؟

اقترب الشاب الأول من النافذة ومسح الزجاج وهو يبتسم. كانت
أسنانه متآكلة ووجهه مصاباً بحب الشباب... وفي عينيه رغبات تتجاوز
سنوات عمره.

«أرجوكما، اتركاني بحالي».

كلمات لا معنى لها في هذا الموقف، قالتها كأنها ابتهال.

فجأة، ومن حيث لم تتوقع، سمعت صوت منبه سيارة طويلاً وعالياً
يأتي من الوراء. التفتت، فقفز قلبها من شدة الارتياح. في الوقت المناسب
تماماً. كانت سيارة الجاكوار التي تخص الرجل الغامض في المقهى الصغير،
والسائق يطلق نفيره لأن دراجة الشاب الأول تغلق الطريق أمامه. وفي
اللحظة التي توجه فيها الشاب لإزاحة دراجته. فتحت فاليسا الباب
بسرعة. لم يكن الشاب يريد أن تدخل، بل يريد أن يفسح الطريق
للجاكوار. وكان أمل فاليسا تراه معدوماً؛ وبينما كانت تحاول الركض
متجاهلة الشاب الثاني وذراعيه الممدودتين، ترجل سائق الجاكوار من
سيارته وأغلق الباب خلفه، وحاولت فاليسا أن تهدئ قدميها المرتجفتين
عندما شاهدته متقدماً نحو سيارتها.

قالت له:

«ارجوك ساعدني... هذان الشابان...».
واعترف. لقد شاهدتهما.
جاء صوته ضعيفاً. ربما كان صوتاً عذباً في الأوقات العادية، لكنه الآن غاضب ومنفعل. هذا ما لفت انتباه فاليسا للوهلة الأولى وهي تنظر اليه كوسيلة انقاذ. وسرعان ما ادركت شيئاً اعاد الخوف الى نفسها. هو شخص واحد. وهما اثنان وقويان. ولا يبدو عليه انه قوي، بالرغم من انه طويل القامة وعريض المنكبين ويمشي واثق الخطوة. لقد لاحظت هذه الأمور كلها عندما دخل المقهى، وهي في منتصف وجبتها، وقبل ان يبدأ الشابان تحرشاتهما. يبدو عليه انه من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل. لكنه لن يفعل ذلك الآن. او هل يفعل؟ هل يتركها وحيدة ويتابع رحلته؟

واخيراً تكلم. ازاح الشاب الأول دراجته بعيداً عن الطريق واضعاً اياها قرب سيارة فاليسا بحيث تستطيع الجاكوار ان تمر.

قال وهو يبتسم:

«هيا ايها الفتيان، ابتعدا من هنا».

وقف الشاب الأول، وهو القائد على ما يبدو، في مكانه مباعداً بين ساقيه وواضعاً يديه على خصره في وقفة تحد.

«اسمع، لقد ازحت دراجتي عن الطريق فلماذا لا تتابع رحلتك، حتى لا تتعرض للاذى؟».

«وكلا لكن هذه الشابة ترفض اعتراضكما لطريقها، وانا شخصياً لا الومها لذلك...».

لكنه لم يستطع اكمال جملته.

استدارت فاليسا نصف التفاتة لأن الشاب الثاني كان حتى تلك الحين صامتاً، ولذلك شاهدته اولاً فصرخت:

«انتبه...»

ولكن تحذيرها لم يكن ضرورياً. كان الشاب يحمل زجاجة في يده، ولو انها اصابت هدفها لفقد الرجل الغامض وعيه. لحسن الحظ خابت الضربة. وراقبت فاليسا باعجاب مشوب بالدهشة كيف ان الرجل استطاع ان يقبض على معصم الشاب ويلويها بشدة مع ابتسامة خفيفة من جهته هو. كان مدهشاً ان تراقب الحركة لأنها جرت كما لو في التصوير

السينمائي البطيء، وشاهدت وجه الشاب وقد علته الدهشة اذ سقطت الزجاجة من يده المتشنجة ثم تبعها هو الى السقوط... هنا تدخل الشاب الأول وتقدم مهاجماً. وقالت فاليسا لنفسها: هذه هي النهاية. والتفتت لتبحث عن عصا او اي شيء للمساعدة.

حدث كل شيء باسرع مما تتصور. وصل الشاب الأول مسرعاً نحو الرجل الغامض رافعاً قبضة يده للوصول الى وجه خصمه وواضعاً قوته كلها في هجومه. وشاهدته فاليسا وهو يطير من فوق الرجل الذي انحنى قليلاً الى الخلف ثم عاد ليجلس على صدر الشاب بسهولة وسرعة.

ادركت فاليسا انه يتقن رياضة الجيدو. وعرفت الفرق بين مشاهدة اللعبة على شاشة التلفزيون وبين ما جرى الآن... انه الفرق بين الرياضة والواقع.

انتهى كل شيء. نهض سائق الجاكوار الغامض عن فريسته وهو ينظر باشمئزاز الى الشابين الزميلين، اللذين يحاولان الوقوف على اقدامهما. ثم خاطب فاليسا قائلاً:

«اصعدي الى سيارتك وتابعي السير. سأتبعك انا بسيارتي. هيا بنا بسرعة».

لم يكن هناك مجال للكلام. اطاعته من دون ان تتفوه بكلمة وادارت محرك السيارة بيدها المرتعشة. ثم هدأت قليلاً عندما ادركت انه هو الذي يجب ان يرتعش اذا ما كان هناك سبب لذلك، وليس هي.

على بعد خمسة اميال، وبالقرب من مفترق طرق، اعطى سائق السيارة اشارة ضوئية طالباً منها التوقف، ففعلت وترجلت من سيارتها. الشيء الأول الذي يجب ان تفعله هو ان تشكره.

اقترب منها، ودون ان يفسح لها المجال سألها بلهجة آمرة:

«وما اسمك؟».

فماتت كلمات الشكر على لسانها فوراً.

«فاليسا».

بدأت كلامها، لكنها لم تستطع ان تتذكر اسمها الثاني «آ... [illegible]».

قال بنغمة ساخرة وهو يرفع احد حاجبيه:

«يبدو انك تجدين صعوبة في تذكر اسمك الثاني».

لمعت عيناها بالغضب لبرهة وقالت:
«اني مضطربة . . . كانت تجربة مخيفة».
«صحيح» وافق قائلاً: «حسناً يا آنسة سميث» مشدداً على كلمة سميث «انا لا انصحك بالسفر وحيدة في المستقبل . . . على الأقل في مثل هذه الأماكن. انت تعرفين المتاعب التي كنت ستواجهينها لو ان احداً لم يصل في الوقت المناسب؟».
ووجدت ان عرفانها له بالجميل بدأ يزول بسبب طبعه الحاد، لكنها تمسكت بالجملة الأخيرة التي نطق بها لتنطلق منها وتقول:
«نعم، وانا شاكرة لك ما فعلته من اجلي».
«عرفت في المقهى ما يدبران فعله. وتحكم طول الطريق مع اني لم اكن اقصد هذه الناحية اساساً».
آه. لقد بدأ يترك تأثيراً غريباً عليها. كان من النادر ان تعجز عن ايجاد الكلمات المناسبة. ومن النادر ايضاً ان تجد رجلاً مختلفاً الى هذا الحد، لكنه لم يكن يراها على الاطلاق. كان طويل القامة بحيث سبب لها الارتفاع، خاصة انها طويلة ايضاً، ولم تتعود ان تنظر الى الأعلى لتخاطب الآخرين. معه اضطرت الى ذلك. فقد كان اطول منها، عريض المنكبين، اسمر الوجه، وما عينين لامعتين بشكل غير عادي حتى خيل اليها انهما تسخران منها . . لكن هذا غير معقول!
واكمل كلامه قائلاً:
«فاما ان احضري معك رفيقة طريق او ان تتعلمي بعض الكاراتيه».
«سأستلم وظيفتي على بعد ثلاثين ميلاً».
اجابت برد حاسم بدا لها حاذقاً:
«ومن الصدف والحالة هذه ان احضر معي مرافقي، اليس كذلك؟ اما بالنسبة للكاراتيه، فقد كنت اعتبر الاسكتلنديين محبين للضيوف . . . لكني يجب ان اعيد التفكير بهذا يا سيدي».
عليه ان يقبل رأيها بالاسكتلنديين كما يشاء. بدأت اعصاب فاتينا تتوتر، وكلما اسرعت بمغادرة المكان، كان ذلك افضل لها.
«[illegible] يا آنسة سميث».
وشدد على نطق الاسم الذي يؤكد كونه اسكتلندياً.

«اليس من الأفضل لنا ان نواصل السير».
واستدارت نحو سيارتها وهي تقول:
«والشابان . . .».
«سوف يستمران في البحث عن مفاتيح المحرك لمدة غير قصيرة بين الاشجار».
اجاب مبتسماً. ليس هناك ما يضحك، مجرد ابتسامة كشفت عن اسنان لامعة.
«وحتى لو وجداها، فسيندمان ان ما حاولا اللحاق بك».
ولم يكن متبجحاً، كان يقول الحقيقة. لم تستطع فاتينا ان تمنع الكلمات:
«من الجميل ان تكون واثقاً الى هذا الحد من نفسك».
ابتسمت ايضاً وهي تدرك تأثير ابتسامتها على الرجال. انها الابتسامة التي تسحر، ولكنها لم تسحره هو.
«هذا صحيح» ونظر اليها بكبرياء. «وانت ذات مزاج عصبي يا آنسة، اليس كذلك؟ ربما كنت تفضلين ان اتركهما يجيبانك بالزجاجة؟»
«لم اقصد ذلك».
وبدأت تشعر بالارتباك. من يعتقد نفسه هذا الوحش المتعجرف؟
«قصدت . . .».
لكنها لم تكن متأكدة مما تقصده الآن. وانهت كلامها بنبرة حزن.
«يبدو انك تعتقد بأنها غلطتي».
نظر اليها عمداً. تعبير غريب جداً مر للحظة على ذلك الوجه الأسمر الجذاب:
«الم يعلمك احد بأن تخفي طرفك الساحر عندما تكونين في بعض الأماكن؟».
«ولماذا؟ من الأكيد انه لم يفكر . . . وكيف تجرؤ على هذا القول؟ وماذا تقصد من ورائه؟».
وجهها في العادة ابيض اللون وناعم بشكل يتناقض مع شعرها الأسود، اما الآن فقد احمر خداها والتمعت عيناها لبيتان الغامقتان بشرارات الغضب.

«وحتى من هذه الأنوثة».
كان يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب طفلاً:
«ألا تقولي لي انك لم تعطها نظرة تشجيع حتى ولو غير مقصودة».
ووقع يده مسترخياً عندما قال العبارة الأخيرة:
«لكنك لا تستطيعين تجنب الأمر، أليس كذلك؟ فأنت مدركة لجمالك انت كانية لو معقلة لذا انكرت ذلك - وكان يجب ان تعرفي انك متسببين للمتاعب بسحره...».
«إلى اللقاء هنا لحظة أخرى لأستمع الى الوقاحة يا سيد فريزر».
صرخت بانفعال واستدارت عائدة الى سيارتها.
«لست أدري من هو الأسوأ فعلاً». ودعاها.
ثم صمت كلياً. لم ينبس ببنت شفة ولم تحاول ايقافها. ترى ما الذي كانت تتوقعه؟

نظرت في مرآة سيارتها تراقب الطريق خلفها وهي تنحدر مسرعة نحو منعطفها. رأته يدخل السيارة بسهولة رغم ساقيه الطويلتين. لم يكن ينظر اليها، بل لم يكن مهتماً ابداً. زمت فاليسا شفتيها بغيظ. لقد كان شخصية بغيضة مع انه انقذها من وضع لا تحسد عليه. ألقت نظرة اخرى قبل ان تحجب الطريق سيارته عنها. شاهدت بصيص احتراق سيكارة من خلف الزجاج، انقبض قلبها، هل ينتظر فعلاً حتى يتأكد من عدم وجود اية مشاكل؟ هذا ممكن. لكن مع مواصلة السير، طغت افكار اخرى ملحة على ذهن فاليسا. افكار حول المكان الذي تقصده والأسباب التي دفعتها للقدوم.

حدث شيء غريب جداً قبل بضعة اميال من ديستورد هاوس. توقفت للحظة حتى تراجع خريطتها وتتأكد من المنعطف الحاد الذي برز الى اليمين والذي يقود الى طريق يبدو وكأنه ينتهي الى جبل منعزل موحش. عليها ان تتأكد قبل ان تتابع سيرها، لئلا تجد نفسها في طريق لا يمكنها العودة منه الا بعد اميال عديدة. خاصة ان الظلام اصبح حالكاً، والغيوم الداكنة تطبق على الأرض منذرة بالمطر الغزير.

انه طريقها بالفعل. لقد اشرت على الخريطة بعناية في مكتب المحامي بعد تلقي التعليمات منه. لا يمكن ان تكون مخطئة، فالمنعطف الحاد هو

الدرب الذي يجب ان تسلكه. اعادت فاليسا الخريطة الى مكانها وتأكدت من خلو الطريق من السير ثم انعطفت يميناً. ومن بعيد، لاحت بشكل غير واضح سيارة تنهب الأرض على الطريق نفسه الذي تركته فاليسا قبل لحظات... وتساءلت فاليسا ما اذا كانت هذه السيارة هي سيارة الجاكوار. من الممكن ذلك، لكن الأمر مستبعد. ثم انشغلت عن التفكير بذلك «الفارس الأزعر» وهي تتجاوز منعطفاً حاداً ضيقاً برز امامها فجأة... وما هي الا دقيقة حتى كانت الجاكوار وراءها.

لم يكن امام فاليسا مجال كي تفسح له الطريق ليتجاوزها. فالدرب المتعرج الضيق كان يجعلها حذرة ويقظة. هل هو مستمر في ملاحقتها؟ ربما يريد ان يقول لها شيئاً؟ عند المنعطف التالي، وكان هناك متسع للتجاوز، اعطته اشارة كي يعبر. لكنه توقف، ولم يعد امامها الا التوقف.

انزلت زجاج شباك سيارتها. ترى ماذا يريد؟
«هل انت في الطريق الصحيح؟».
كان صوته عميقاً وهادئاً، وكأن شيئاً لم يحصل بينهما.
«نعم. اعتقدت انك تريد سؤالي عن شيء ما. انا متوجهة الى مكان يدعى ديستورد هاوس...».
توقفت عن الكلام عندما لاحظت تعابير وجهه التي تنم عن الدهشة والاستغراب. ماذا حدث؟ ماذا قلت له؟
«انت ذاهبة الى ديستورد؟» تساءل بدهشة. «ألا تقولي لي انك الآنسة التي تريد تنظيم المكتبة هناك؟ يا الهي!».
وماتت الكلمات الاعتراضية على شفتيها. انحنت فاليسا باب سيارتها ودفعته بقوة. ابتعد الرجل عن طريقها وهو يساعدها في امساك الباب. ترجلت ووقفت امامه متحدية...
«لقد سمعت ورأيت ما فيه الكفاية. انا لا اعرف ماذا ومن تكون، لكن المكان الذي اقصده لا يعنيك ابداً... واذا كنت تتشاغلني من التسلية...».
لم يتركها تكمل كلامها. كان ينظر اليها وبسمة استغراب مشوبة بالدهشة على شفتيه:
«مهلاً من رويدك،» قاطعها بصوت صخري كملامح وجهه.

«ومثلك لن يفوتك مني، ولن يفتك أيضاً...».

«أيها الـ...».

«أرأيت ماذا قصدت؟ العينان تشرقطان غضباً، والوجنتان محتقنتان... هذي نفسك أيتها القطة المتوحشة والمتوترة».

أحست فانيسا بأن صدرها يكاد ينفجر وهي تحاول ضبط نفسها أمام هذا المخلوق المجنون والمتعجرف. كم تمنت أن تصفع ذلك الوجه القاسي!

«هذا أفضل». لم يعرف كم كانت قريبة من الصفعة. «في كامل الحق بسؤالك عما إذا كنت ذاهبة إلى ديستون، فأنا أعيش هناك حالياً».

نظرت فانيسا إليه للحظات. هذا غير معقول؟ هذا غير معقول! وقالت بصوت أكثر هدوءاً:

«المقاطعة التي قصدتها ملك شخص يدعى السيد ماكلين، وحسب علمي هو يقيم...».

«انه يقيم وحيداً». أجاب بنعومة. «انه يقيم وحيداً باستثناء الخدم ومدبري البيت. وأنا حالياً... ضيفه».

لم تلحظ فانيسا في ارتباكها تردد الرجل قبل الكلمة الأخيرة. من أين جاءت كل هذه التعقيدات؟ نظرت إليه. عليها أن تكون شديدة الحذر. فأشياء كثيرة أخذت تحدث فجأة. يجب أن تجد الوقت لتعطيها وقتاً للتفكير. لكنها أدركت أنها لا تملك متسعاً من الوقت للتأمل والتفكير.

«لقد فهمت».

وحاولت أن تضع على شفتيها ابتسامة كبيرة. ظلت الابتسامة موقفاً، وعندما جاءت كلماته أحست أن قبلتها هي التي أوحت إليها بذلك.

«استغربت كثيراً في البداية لأن اسم الموظفة الجديدة حسب ما أعتقد هو» وفرك مقدمة جبينه بأصبعه وهو يحاول التذكر «أعتقد أن اسمها الآنسة كولينز».

وقطع كلامه متسائلاً وكأنه يقول: «والآن ما هي الحقيقة؟».

وأعطتها الابتسامة الأخيرة وقتاً هي بأمس الحاجة إليه للاستعداد والاجابة.

«هذا صحيح» قالت مرتاحة «وعندما أخبرتك أن اسمي هو ستيوارت،

كنت ببساطة غير راغبة باعطاء اسمي الحقيقي لشخص غريب».

رفع أحد حاجبيه وقال:

«بالطبع... بالطبع». وأضاف بصوت ناعم «أنا لا ألومك. هناك نوعيات غريبة من الناس أخذت تتردد على هذه المنطقة مؤخراً».

لكنها كانت متأكدة من أنه لم يصدقها. الشيء الوحيد الذي فكرت فيه هو: هل من الضروري أن يصدقها؟

كانت فانيسا تعطي لنفسها بعض الراحة كي تقلب المشكلة من كافة جوانبها، عندما كانت تتجه بسيارتها على الطريق الذي أخذ يضيق ويتعرج أكثر. قاد سيارته الجاكوار بروية آخذاً بعين الاعتبار عدم معرفتها للمنطقة بالمكان. وكانت قيادته حاذقة وماهرة بحيث تبعته فانيسا بثقة وارتياح.

إذن، هو ضيف في ديستون هاوس، لكن إلى متى؟ أحست بضيق وعادت إلى ذاكرتها الحوار الذي جرى في مكتب السيد موريتون.

واتضحت لها الأمور بشكل لم تكن مستعدة له بعد. هي تعرف أن عليها التفكير في الأمر... لكن ليس الآن، ليس الآن. وألحت عليها صورة السيد موريتون القلق وهو يقول بصوت متوتر: «لا أستطيع أن أوافق على الخداع بأي شكل من الأشكال».

«لست أسألك الموافقة على أي شيء».

كانت فانيسا قادرة حتى على تذكر رنة صوتها آنذاك: عنيدة وصلبة ومصممة على ازاحة أي اعتراض، لأنها حسمت أمرها سلفاً.

«لكن الأمر يبدو لي...» ورفع السيد موريتون مجموعة أوراق، «وكأنك ذاهبة إلى هناك لانتحال شخصية أخرى».

«لقد شرحت لك الوضع».

وأعطته ابتسامة طويلة. لم يكن قادراً على مقاومة مثل هذه الابتسامة. وسمعته يسعل بارتباك، فأضافت:

«المسألة لن تستغرق طويلاً، مجرد أسبوع، ثم أخبره بالحقيقة. أنا أشبه بـ... لعبة». وبعدت في سرها: «وليسامحني الله على هذه الكذبة».

لكن يجب أن لا يعرف أحد أسبابها الحقيقية. الرغبة في رؤية ذلك الرجل العجوز الذي دمر حياة والدها... انه جدها اندرو ماكلين الذي أنفق الألوف حتى الآن من أجل العثور على الولد الوحيد لابنه الغارق

حديثاً.

أعادتها إلى الحاضر سيارة الجاكوار التي أخذت تخفف سيرها، فضغطت على الفرامل بسرعة. مر من أمامها قطيع من الماشية متجهاً إلى المدى الظلال. عبرت الخراف المغطاة بالصوف متماسكة عبر الطريق العام. فأسرع الرجل بسيارته وتبعته فاليسا دون تردد. نظرت في مرآة سيارتها خلفه. كانت عيناها سوداوين وواسعتين. تساءلت في نفسها: هل أخطأت من الأساس في المجيء إلى هنا؟ هل كان والدها سيوافق على ما تفعل؟ لن تستطيع أن تعرف أبداً. لقد كان السيد موريتون قلقاً للغاية من فعلتها. وارتكب خطأ أساسياً عندما أخبرها بأنهم طلبوا منه إيجاد شخص مناسب - رجلاً كان أو امرأة - لترتيب مكتبة ويستون هاوس.

«ها قد وجدته». أجابت فاليسا وموجة عارمة من الارتياح تجتاح جسمها:

«ألا ترى؟ أنا سأذهب. ستقول لهم إنك وجدت شخصاً مناسباً، و. . .».

«وماذا سيحدث عندما تكتشفين شخصيتك الحقيقية؟» قاطعها السيد موريتون بجفاء «وكيف سأبدو أنا آنذاك . . . المتآمر الشريك؟».

«كلا». وقفت فاليسا بحزم. «حذرتك أساساً، وأنت تعرف جدية كلامي، من أنك إذا أبلغت جدي. . .» ووقفت عند الكلمة الأخيرة باشمئزاز «إذا أبلغته بالعثور علي، فسوف أرحل على الفور. وتأكد من أنك لن تجدني أبداً».

شعر المحامي العجوز بالحيرة. وأحست هي بالأسف لوضعه. لكن الرغبة في الانتقام كانت الأكثر قوة. . . وأدركت أنها ربحت. . .

أصبحت الآن فاليسا كولينز، مع قصة حياة كاملة أعدتها لنفسها إذا ما سألها أحد. ستذهب لرؤية المكان حيث ولد أبوها وأمضى طفولته الأولى، وسترى الرجل الذي سمعت عنه الكثير من الكلمات القاسية. ستجعله يحبها ويتعلق بها، بعد ذلك ستخبره بشخصيتها الحقيقية وتراقب تعابير وجهه. . . ثم ستغادر منزله ولا تعود إليه أبداً. عندها ستعرف راحة البال، لأول مرة بعد سنتين كاملتين من العذاب. قصة سنتين أخبرها والدها وهو على فراش الموت قصة الرجل القاسي الظالم الذي طرده لأنه

أراد أن يتزوج الفتاة التي أحب وليس تلك التي اختارها جده له. والآن، مات الأب والأم معاً. إنها ماتت مكسورة القلب بعد قليل من وفاة زوجها. وبعدها يتحمل المسؤولية كاملة. . .

شاهدت الرجل الذي يقود السيارة أمامها وهو يؤشر لها للاتجاه يميناً داخل طريق محفوف بالأشجار الكثيفة، فتبعته. هذا الشخص استطاع الإيقاع بها عندما سألها عن اسمها فعلاً. تواردت محمومة تبنت الشخصية التي يجب أن تلبسها، وهذا ما يجب ألا يتكرر أبداً. عليها أن تراقب كل حركة هذا الرجل الأسمر القوي الذي أعطاها انطباعاً بأنه يستطيع قراءة أفكارها أيضاً.

كان الطريق ضيقاً. والأشجار العالية الكثيفة تظلل كل شيء بظلام قاتم لا يتغير. ماذا ستجد هنا؟ إنها لا تملك صوراً فوتوغرافية يمكن أن تعطيها انطباعاً عن المكان. لقد أتلف أبوها كل ما يمكن أن يذكره بالماضي. وهي لا تعرف كيف سيكون مظهر جدها، وإن كانت الصورة الغرابية التي تحملها عنه لا تسر القلب. عما قريب ستعرف كل شيء، وينتهي زمن الخيالات والتوقعات.

عبرت بوابة حديدية واسعة بيضاء اللون. القسم الأول من الطريق مرصوف بالحجارة، ثم يأتي قسم معبد بحريات صغيرة من الحصى. أحدثت سيارة كانت مسرعة زموراً متقطعاً، فاعتقدت فاليسا أنه يؤشر لأسباب ما. لكنها شاهدت مجموعة من الأرانب الصغيرة تفر من وسط الممر. انفرجت شفتاها قليلاً. على الأقل هو لا يحب دهس الحيوانات، وهذه نقطة صغيرة لصالحه. إنها لم تعجب به. وهذا الشعور كان متبادلاً، فتصرفاته معها عكست هذا الأمر. لقد كان فظاً، هكذا تخيلت. لم يكن من المناسب أن يكتشف هويتها ويفسد خططها، عليها أن تعامله بحذر بالغ خلال الأسابيع القليلة المقبلة، وبعد ذلك لا يعود يهم أبداً.

وأخيراً شاهدت البيت. فامتلأ قلبها بالحزن العميق. الآن هذا هو بيت أبيها. كان جميلاً جداً بحجارته الرمادية البارزة ونوافذه الواسعة ورواقه ذي الأعمدة الرخامية. عدة درجات تؤدي إلى الباب حيث الظلام الخفيف يغطي المدخل المسقوف. وعندما وقفا أمام الباب أنير البيت بضوء ساطع هو مزيج من الأبيض والأزرق.

اوقفت فاليسا محرك سيارتها. ولبرهة من الزمن احست برغبة جارفة في الهرب.

«هيا بنا الى الداخل».

وفتح الرجل باب سيارتها معيداً اياها الى ارض الواقع:

«سنمضي عطلة دقائق.. اين حقائبك؟».

«في الصندوق».

سحبت المفاتيح من محرك السيارة وناولتها له. اخذها وتوجه الى الخلف وفتح الصندوق وحمل حقيبتيها. كانت فاليسا محتارة بين الرغبة في شكره والانزعاج من الطريقة الباردة التي تناول فيها المفاتيح، كأنه فقد صبره معها واصبح غير مهتم بتبرير تصرفاته. حملت سترتها وحقيبة يدها، وقررت ان تترك الأمور على علاتها، على الأقل حالياً.

قادها الى الداخل عبر سلم حجري، ثم فتح باباً ضخماً.

«اهلاً بك في دينستون هاوس يا آنسة كولينز».

كان من الصعب عليها ان تعرف معنى رنة صوته، لكنها اكيدة من غياب الترحيب الفعلي.

«شكراً لك [illegible]».

كانت [illegible] الآن، فقد [illegible] ... تستغرق [illegible] عن وجهها وسألته:

«ماذا علي ان افعل الآن؟».

«سأرشدك الى غرفتك اولاً فترتبين اغراضك، ثم نتناول العشاء».

«ولكن اليس من الأفضل لقاء السيد ماكلين قبل ان اصعد الى غرفتي؟».

رفع حاجبه الأسود قائلاً:

«ألم اقل لك انه خارج البيت الليلة؟ سيعود ظهر غد على ما اعتقد. وحتى ذلك الوقت سنكتفي انا بوجودك».

احست بنبرة سخرية في صوته. هذا [illegible] بالطبع. لكنها لم تكن مرتاحة.

وتساءلت بنعومة:

«وربما كان سيحدث لي لو لم اصادفك في الطريق».

«المشرفة على البيت وزوجها السيد والسيدة [illegible] كانا سيهتمان بك».

رفع حقيبتيها وسار نحو السلالم الخشبية في منتصف القاعة الكبيرة. وصلا الى غرفة تغطيها النوافذ الزجاجية الملونة، وعلى الجانبين، ثريات من الذهب والحجر. وبينما هي سائرة الى جانب الرجل، اضاء البرق النوافذ فأحست بالخوف والغربة. [illegible] اذ لاحظت نظرته اليها قبل ان يبدأ:

«خائفة من العواصف؟».

انا بعطف.. لو ان هذا العطف حقيقي! لكنه بدا مسروراً اكثر منه قلقاً.

اجابت:

«لا ابداً.. وانت؟».

«ان آثار البرق شديدة غالباً، فقد شاهدت ما يمكن ان يفعله. لكنني لا اتوقعه».

[illegible]

كانا قد وصلا الى اعلى الدرج. وعلى [illegible] ارضيتها بالسجاد الثمين. وقف كال فرين ووضع الحقيبتين على الأرض بحركة بطيئة مقصودة.

قال بصوت منفعل:

«علينا ان نجد اسلوباً للتعايش اذا ما كنت ستمضين وقتاً هنا. لو كنت في مكانك لراقبت لساني جيداً، فهو سليط جداً بالنسبة الى آنسة رقيقة مثلك».

احست وكأنه صفعها. وبصعوبة كبيرة استطاعت ان تجيب بهدوء:

«هل تهددني؟».

«ابداً.. » بدت عليه الدهشة. «اني ابدي ملاحظة فقط. هل ابدو كمن يهدد امرأة؟».

كانت السخرية واضحة في صوته.

«لا اعرف ما فيه الكفاية حتى احكم على ذلك» ردت على هجومه بسرعة. وقالت «في الواقع لا اريد الحكم عليك. لكنك تستطيع ان تكون لطفاً معي بدون ان تحاول. فهذا ما تفعله فعلاً بعد افعالك. فقد حاولت ان تقول انني شجعت الشابين على مضايقتي».

قاطعها بحدة:

«لم افعل ذلك. فقط اقترحت عليك ان تخفي عينيك الساحرتين عندما تكونين في مكان ما..».

ردت عليه بسرعة:

«وكأنني كنت احاول استمالتهما، او اي شيء من هذا القبيل».

كان موقفاً غريباً ان تكون هناك. خروجهما فقط في ذلك البيت الضخم، تناقش الرجل الغريب وتحاول ان تنتصر عليه ولو لمرة واحدة. تنفست بعمق لتستعيد رباطة جأشها.

ضحك وقال:

«الم تحاولي استمالتهما؟».

واندفعت قليلاً اليه رافعة يدها الى ذلك الوجه البارد:

«كيف تجرؤ..».

لم تستطع ان تكمل.

امسكها وجذبها دون جهد يذكر. نظر اليها بعينين لامعتين بينما كفّاه يمسكان ذراعيها بقسوة وبرودة.

«انت قطة متوحشة بالفعل»، وقال بهدوء: «ما هذه الطباع التي تملكين؟ انت تدركين انني اقدر على ترويضك...».

صرخت بصوت مخنوق:

«اتركني!».

«سأتركك عندما اكون جاهزاً. اريدك ان تستمعي الي لدقيقة. فانت بين يدي الآن..».

وحاولت قليلاً ان تخلص نفسها، لكن قبضته كانت قوية للغاية. قالت وهي تتنفس بصعوبة:

«انك تؤذيني».

كانت دون حيلة على الاطلاق. لم تكرهه الآن! كيف يتجرأ على

ذلك؟

«انت اعتدي قليلاً. لن ادعك تصفعينني، واعرف انك ستفعلين ذلك اذا ما اطلقت ذراعيك. والى ان تهدأ اعصابك، سأظل ممسكاً بك».

«واذا لم تتركني فسوف اركلك بقدمي».

وكانت تعني ذلك تماماً.

«جربي ذلك» اجابها بصوت ناعم وصلب، «وانصحك ان تجربي ولو لمرة واحدة. واعدك بأنك بعدها لن تكرري بسرعة ابداً».

اصابتها كلماته الباردة بما يشبه الجمود، واحست برعشة تسري في اوصالها. ماذا يمكن ان يفعل؟ وتذكرت كيف استطاع ان يواجه الشابين اللذين هاجماها... فشعرت بالخوف. ودون ان تعي خففت من توتر جسمها. فكرت انه من الأفضل عدم مقاومته كي لا تعطيه المجال لممارسة بعض ضربات الجيدو عليها.

«هذا افضل. لقد توقفت عن المقاومة».

خفف كال قليلاً قبضته من ذراعيها واصبح وجهه اقل قسوة.

«تذكري دائماً انك لا تستطيعين مقاتلتي، ولذلك لا تجربي».

قالت بصوت ضعيف:

«انت مغرور. الن تطلق سراحي؟».

«هل تريدين ضربي؟».

«كلا».

انتفى الضغط. دلكت قليلاً ذراعيها حيث كانت قبضته، ونظرت الى معصميها. علامات قواها في جلدها. ولسبب غير معروف شعرت ان ذراعيها ضعيفتان كما لو ان عضلاتها ترفض العمل. سألت بجزع:

«ماذا فعلت بي؟ انني لا استطيع...».

«لم افعل شيئاً. ما عدا انك ضعيفة الى هذا الحد. اقترح عليك تعلم بعض وسائل الدفاع عن النفس. وهكذا اذا ما هاجمك احد المتشردين في المستقبل، تستطيعين القضاء عليه».

قالت بسخرية واضحة

«سأتذكر ان التحق باحدى مدارس تعليم الجيدو عندما اعود الى لندن».

نظر اليها بحزم:
«لا حاجة للانتظار. يمكنك المباشرة الآن. سأكون مسروراً عندما ادربك شخصياً».
وابتسم. ولم تعرف فاليسا كيف تتقبل كلماته وابتسامته. نظرت اليه ببرود. قالت:
«هل اذهب الى غرفتي الآن. اريد ابدال ملابسي».
«بالطبع. من هنا الطريق».
على عقبيها وسار امامها. وفيما هي تتبعه، اخذت تفكر بالعرض الذي قدمه لها.
لا يمكن ان تسمح له بتعليمها اي شيء.. فجأة خطرت على بالها الفكرة الثانية: سيكون الأمر مثيراً للاهتمام بالفعل. لكنها سرعان ما طردتها.

٢- في البيت الكبير

اصيبت فاليسا بصدمة قوية عندما شاهدت الغرفة المخصصة لها. لكنها اخفت مشاعرها حتى تغادر كال غرين المكان كي لا تعطيه فرصة الشماتة من دهشتها البالغة.
كانت الغرفة جميلة جداً، عالية السقف وواسعة تماماً، وتطل على مقدمة المنزل من خلال نافذتين عريضتين تكشفان الحدائق والسهول التي اجتازتها فاليسا قبل قليل. اتجهت الى احدى النافذتين لتتأمل المناظر البديعة الممتدة. وقفت صامتة امام الستائر المخملية الخضراء. الليل اصبح اكثر حلكة، والعواصف الرعدية تزمجر في البعيد... انهمر المطر غزيراً بحيث احست ان الاخضرار الأرضي تنعكس على الضوء الخافت في الخارج. تركت فاليسا النافذة لتتأمل اثاث الغرفة المصنوع كله من خشب السنديان المصقول. كان هناك مقعدان وثيران وسريرها المفروش بغطاء مزين بالورود. وفي احدى الزوايا استقرت ساعة حائط اثرية والى جانبها طاولة عليها مزهرية... وكأنها قطعة ورثتها الدمى. ووجدت حتى جهاز التلفزيون احتل الزاوية المجاورة للنافذة.
اثاث الغرفة يدل على ذوق راق واهتمام ملحوظ. فجأة شعرت ببعض الذنب، لكنها تخلصت منه بسرعة. من غير المناسب ان تشعر بذلك ولم تمض على وجودها في المنزل اكثر من خمس دقائق. لقد اتخذت قرارها بالها، وعليها ان تستمر في مهمتها... من اجل ابيها.
غطت وجهها براحتيها عندما احست بألم حاد. انه الألم الناشىء عن ادراكها بأنها مهما فعلت، فان كل شيء، قد فات الآن. تنفست بعمق

واتجهت الى مرآة تغطي خزانة بالقرب من السرير. فتحت الخزانة، فاذا بها امام حمام متكامل. لا شك ان كال هربن تعمّد عدم الاشارة الى الحمام من اجل دفعها الى سؤاله وبالتالي احراجها. لكنها اسقطت هذه الفكرة من رأسها فوراً.

كان الحمام يمثل جمال غرفة النوم. المرايا تغطي معظم الجدران، ما عدا النافذة التي تطل على غابات كثيفة. تلفتت فاليسا حولها بارتياح. كم كان جميلاً لو انها فقط... ! يجب ان لا تفكر بهذه الطريقة. خرجت من الحمام بحزم واغلقت الباب خلفها. سوف ترتب ملابسها وتستحم ثم تتهيأ للعشاء.

خيّم جو من الهدوء والروعة على الغرفة عندما اضاءت الأنوار الموزعة بشكل مناسب. اغلقت فاليسا الستائر، وفتحت حقيبتها وبدأت عملية الترتيب.

عندما نزلت الى القاعة الكبرى لم تسمع أي صوت سوى حركات رقاص ساعة الحائط. اضاءت ثريا واحدة اعطت نوراً برتقالياً انعكس على الجدران والمقاعد الخشبية الثقيلة. كانت العاصفة الرعدية قد انتهت، ولم تبق سوى بعض حبيبات من المطر تضرب النوافذ بين حين وآخر. لذلك تشجعت وتوجهت الى الباب الخارجي وفتحته. القت نظرة متأملة على الحديقة المشبعة بالمطر. احست بقشعريرة خفيفة عندما جاءها صوت من الخلف:

ـ لا اعتقد انك تفكرين بنزهة في مثل هذا الوقت؟

استدارت ببطء. عرفت صاحب الصوت على الفور. لم تسمع في حياتها صوتاً يشبه صوته الهادئ المميز مع تلك الرنة الساخرة التي تبدو واضحة عندما يخاطبها... وهذا ما كان يزعجها، لكنها لن تظهر ذلك. اجابت:

ـ وكنت آمل فقط.

عادت اليها صورة شجارهما الأخير. ما زالت تحس بالوخز في ذراعها حيث امسكها بقبضتيه القويتين. عليها ان تكون حذرة في التعامل مع السيد كال هربن، الآن وليس آجلاً. كان قد غير ملابسه الى سترة مريحة مع سروال مناسب وقميص مفتوح عند الصدر. وأدركت عند رؤيته، رغم شعورها نحوه، بأنه جذاب للغاية. فالسترة اظهرت منكبيه العريضين، واستقرت

كيف جاءها الانطباع الأول في الظهور بأنه من النوع الذي يهرب من المشاكل. كان يبدو واثقاً من نفسه تماماً. نظرت فاليسا الى نفسها، لقد بدلت هي ايضاً ملابسها الى زي ازرق اللون كان يشعرها بالارتياح دوماً. كانت التنورة الطويلة تعطي انسدالاً، وقد ابرز اللون الأزرق نضارة بشرتها الوردية. ارادت ان تبدو في احسن صورة كي تستعيد ثقتها بنفسها، خاصة امام ذلك الرجل الذي ما لبث ان سألها:

ـ هل انت جائعة؟ السيدة بالكنس تريد ان تعرف.

ـ اكيد، لكنني لا اريد ان اشغلها...

قاطعها قائلاً:

ـ لن تشغليها، فالعشاء جاهز.

اجابت بسرعة واضحة مع انها لم تكن تريد ذلك:

ـ قل لي، هل تركت احداً يكمل كلامه؟

اجاب ضاحكاً:

ـ ليس هناك وقت للكلام الفارغ، اذا كنت تقصدين ذلك. فأنا اريد ان اطرق لب الموضوع مباشرة.

وقالت بهزة خفيفة من رأسها:

ـ لاحظت هذا تماماً، وعليّ ان اتذكر ذلك. لكني سأرى كيف تكون ردة فعلك عندما يقاطعك احد ما.

رفع كال حاجبيه مستغرباً:

ـ لا شك ان الجوع يجعلك عصبية المزاج. هيا بنا الى غرفة الطعام، ستشعرين بالراحة بعد الأكل.

ولمس ذراعها خفيفاً وهو يدلها على الطريق.

ابعدت فاليسا ذراعها بهدوء وقالت:

ـ شكراً لك، فأنا لست طفلة. سأتبعك الى المائدة اذا ما اتضحت الطريق.

اغلق الباب خلفه بسرعة.

ـ حسناً، من هذا الطريق.

سار امامها متجهاً الى يمين القاعة، ومر بعدة ابواب مغلقة حتى وصل الى غرفة طعام واسعة فيها طاولة تكفي لحوالي خمسة وعشرين شخصاً.

طافر قلبها بين ضلوعها: هنا ستتناول عشاءها. بالنسبة اليها كان يكفي طعام خفيف في غرفتها. لكن الأسوأ على الطريق، فعلى احد طرفي الطاولة شاهدت كرسيين فقط.

«كرسيان؟» ونظرت اليه.

ابتسم وقال «نعم، كرسيان». وأضاف مثلها:

«لم اكن لأسمح لك بتناول الطعام وحيدة... أليس كذلك؟».

اجابت بلهجة غير مبالية:

«ألا تستطيع فعلاً؟ كنت اعتقد ان الأمر مسموح لك ذاك».

«انا مضيفك الآن وحتى عودة السيد ماكلين».

انتبهت الى رنة سخرية خفيفة في صوته العميق. تنفست بعمق وردت ببرودة واضحة:

«اي كرسيٍّ لي؟».

سحب الكرسي القريب منها وقال:

«تفضلي واجلسي».

وما ان استقر بها المكان حتى دخلت امرأة قصيرة القامة ذات شعر شيب، ترتدي فستاناً اسود اللون، وهي تدفع عربة الطعام امامها. حدقت في فانيسا قبل ان تخاطب كال:

«هذا هو الحساء. من الأفضل ان تتناوله ساخناً».

«اني اعرف ذلك»، ابتسم لها بسخرية فدهشت فانيسا، ثم قال:

«هذه فانيسا كولينز التي ستشرف على ترتيب المكتبة».

هزت السيدة بالكس رأسها وعلى شفتيها ظلال ابتسامة:

«حسناً جداً. لقد مللت من الكتب التي تملأ المكان». حدقت مرة اخرى بفانيسا قبل ان تضع الصحون على الطاولة ثم تغادر الغرفة. ولاحظت فانيسا ان لهجتها عامية واضحة.

كان الحساء المصنوع من عصير الطماطم طيب الطعم للغاية. انتظرها كال حتى بدأت قبل ان يتناول ملعقته:

«ان كلامها أقسى من افعالها».

قال وكأنه لاحظ استغراب فانيسا.

«انها لم تقصد الملل من الكتب بل من عدم ترتيبها».

«طيباً... طيباً».

ورفعت حاجبيها بدهشة مصطنعة فلم يكن وجهه قادراً على افتعال الاستغراب.

«انا لم اقصد عكس ذلك».

وانصرفت مجدداً نحو الحساء.

تناولت فانيسا قطعة من الخبز المحمص الذي احضرته السيدة بالكس مع الحساء. كان الخبز طازجاً وساخناً، والرائحة الذكية تنبعث منه. وأدركت كم هي جائعة، وقررت في نفسها ان لا تدع كال غرين يفسد عليها وجبتها مهما قال او فعل. والحقيقة كان كال منشغلاً بنفسه بحيث لم يعد ينظر اليها. استطاعت ان تراقب بحذر وجهه وهو منحنٍ نحو الحساء، وقد انعكس ضوء الشمعدان الناري على شعره. هناك شيء مؤثر في ذلك الوجه. ولم تستطع فانيسا ان تفسر لماذا لم تره قوياً من قبل. لعل النظرة الأولى خادعة دائماً، وهذا بالفعل ما حدث. فالطريقة التي تعامل بها مع الشابين تؤكد قوته. وفجأة خطر على بالها شيء جعلها تضطرب. انه لم يكتف بعدم الخوف منهما بل كان يستمتع بالقتال معهما. عادت الى صحن الحساء لتخفي اضطرابها، اذ تذكرت ما حدث لها معه في الممر العلوي. اين فرصتها في التغلب على رجل مثله؟ لقد عرفتها بالفعل عندما عانقها، من انها شاركته بقوة. لعله كان على حق. واستشعرت بشيء يرتعش داخل جسمها... شيء من الحقيقة، مع شعور آخر لم تستطع تحديده جعل قلبها يخفق بسرعة. ومهما يحدث الآن فقد حذروها سابقاً. عليها ان لا تحاول التورط معه ابداً. ومع انها وصلت الى هذه القناعة، الا ان سؤالاً ألحّ عليها: هل سيكون الأمر صعباً؟

ووصلا غرفة زجاجية خاصة للنباتات.

كان كال غرين يريها انحاء المنزل. لم تجد في تصرفاته ما يمكن ان يعطيها مجالاً للشكوى.

رددت الغرفة صدى صوتيهما وهما يدخلان اليها. كان الجو دافئاً ورطباً. شاهدت العديد من النباتات النادرة الموضوعة في احواض فخارية مختلفة الاحجام، وكذلك كرمة عنب كبيرة تتسلق الحائط وتمتد على امتداد مساحة السقف الزجاجي. نظرت الى أعلى فلمحت عنقوداً من العنب

يختبئ تحت الأوراق الخضراء. قالت بصوت خافت:

«انه رائع».

وافقها قائلاً:

«رائع جداً. كنت متأكداً من ان المكان سيعجبك». سخرية خفيفة في صوته، لكنها شعرت بها على أي حال. يا له من رجل كريه. نظرت اليه. عليها ان تحافظ على هدوئها، لأنها اذا اضطربت فسوف...

«اتمنى ان ارى المكتبة» قالت بنعومة، «وهل تعيرني اياها».

كان العشاء ممتازاً بالرغم من بطء الخدمة. وقبل ان يتناولا القهوة في الصالون الكبير اصر كال على ان يأخذها في جولة على البيت.

«طبعاً. المكتبة هي محطتنا القادمة».

شاهدا معاً الصالون الكبير والمطبخ الفسيح، والعديد من الغرف الصغيرة... احداها تستعمل كمكتب عمل واخرى تضم آلة كاتبة واوراقاً مختلفة. منعها كال من البقاء طويلاً في هاتين الغرفتين فحبست في نفسها عدة اسئلة ستطرحها في وقت لاحق.

انبعث هواء حار عندما فتح باب غرفة النباتات وخرجا منها الى الممر. سمعته يغلق الباب خلفه ثم يقول:

«ستجدين شيئاً عند آخر الممر».

غريب كيف يحس الانسان تجاه شخص لا يحبه. كان خلفها تماماً. احست بنظراته في ظهرها وكأنها تتوقع منه ان يهاجمها...

ثم قفزت وهي تصرخ عندما احست بلمسة على ظهرها. اخذ يضحك:

«هل افزعتك؟ انت ذاهبة في الاتجاه الخاطئ... من هنا رجاء».

تجاوزها وهو يمسك بذراعها ليدلها على الطريق. استدارت بخضوع قائلة لنفسها بصوت مضطرب كهرة مذعورة: كلما كان قريباً مني. يجب ان اوقف هذه المهزلة واسيطر على نفسي... والا سيعرف الحقيقة.

فتح احد الأبواب. دخلت الى المكتبة ونظرت في كل اتجاه. احست قلبها يغرق من شدة الفرح. ماذا توقعت هنا، مكتبة منظمة حيث الكتب تحتل رفوفاً جميلة؟ الامر ليس كذلك في هذا البيت. مئات ومئات من الكتب المبعثرة في كل اتجاه، والتي تصل الأرض بالسقف بفوضى مرعبة

«هذه هي المكتبة. فماذا كنت تتوقعين؟».

كان يراقبها، ولاحظت في عينيه اللامعتين شعاعاً من السخرية والتشفي.

هزت قليلاً رأسها باستسلام واعترفت:

«كنت اعتقد... الواقع انها اكثر قليلاً مما تصورته».

بدت ابتسامة خبيثة على شفتيه:

«الحقيقة انها اكثر بكثير. في كل حال يبدو انك قادرة على التعامل معها، لكنك بحاجة الى ملابس قديمة لأن بعض الكتب مغطى بالغبار منذ سنوات».

كان هناك نوع من التشفي في نبرته.

نظرت اليه بحدة. لم يستغل قرارها بعدم الانجرار الى مواجهة معه كي يثير اعصابها، وهو يدرك تماماً ان تصرفاته تجعل الأمور اسوأ... ومع ذلك بلعت ريقها بصمت.

«سوف ابدأ غداً» اجابته بثقة «واؤكد لك ان بعض الغبار لن يزعجني ابداً».

ابتسمت وهي تنظر اليه من اسفل الى اعلى، وتتصوره غارقاً في غبار مئات الكتب. سيبدو مثيراً للضحك... لكنها لم تجرؤ على ذلك.

«حسناً جداً» رفع احد حاجبيه وتابع قائلاً «هيا بنا، سأريك الغرفة الآن ثم نتناول القهوة. يجب ان لا نترك السيدة بالكس تنتظر كثيراً».

«والقبو؟».

هل يعتقد انها تريد رؤية الفحم او مواد التموين؟ وامسكت ضحكة كادت تفلت منها.

«صدقيني سيعجبك المكان جداً. هيا بنا من هنا».

تقع السلالم المؤدية الى الطبقة العلوية في الجهة الخلفية من المنزل، وكانت فانيسا تشعر بالضياع طيلة جولتها في البيت الكبير... فهذا بيت ابيها... هنا ولد وترعرع ولعب...

«سأسير في المقدمة. فالسلالم ضيقة وشديدة الانحدار. هل تريدين طريقتك؟».

«نعم، شكراً لك».

الجدران مطلية بلون أبيض. والسلالم محجرية مغطاة بسجادة سميكة بحيث لا تكاد تسمع وقع خطواتهم. سارت ڤاليسا خلف كال حتى وصلا الى ممر تضيئه أنوار خفيفة شاحبة وتطل عليه عدة أبواب كلها مغلقة.

تلفتت حولها بسرعة عندما خطرت على ذهنها فكرة أنه قد يحتجزها في القبو. الفكرة غير معقولة بالطبع، لكن مع مفاجآت مثل هذا الرجل كل شيء محتمل.

«من هنا. هذا ما أردت أن أريك إياه».

فتح كال الباب الذي الواقع الى الشمال. وتبعته ڤاليسا في الدخول. لكنها عندما تعدت العتبة أصيبت بدهشة شاملة. اذ ما أن شاهدت الغرفة حتى شاهدت شيئاً لم تكن تتوقعه أبداً، ولم تجد ازاءه سوى الدهشة.

وجدت نفسها في غرفة رياضية واسعة مزودة بالحبال والقضبان الخشبية والحصيرة للقفز وأدوات رفع الأثقال. وفي أحد الزوايا دراجة ثابتة للتمارين البدنية. استدارت ڤاليسا نحو كال وقد زالت من نفسها للحظات كل العداوة تجاهه، وقالت:

«انها رائعة جداً».

«السيد ماكلين رياضي مداوم. يأتي الى هنا مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً».

تقدم كال نحو فراش اسفنجي في أحد جوانب الغرفة وقال:

«هذا فراش لرياضة الجيدو. السيد ماكلين يجيد هذه اللعبة أيضاً».

نظرت اليه وتساءلت:

«هل أنت مدربه؟».

هز رأسه نافياً وقال:

«كلا. أنا لم أدربه. لكننا نتمرن سوياً. انه في حالة ممتازة بالنسبة لسنه».

ڤاليسا تعرف كم يبلغ جدها من العمر. عرفت ذلك من أبيها. انه في السادسة والستين. لكن من المفروض أن تجهل ذلك، وقد تنكشف هويتها الحقيقية اذا لم تكن حذرة في مثل هذه الأمور.

«كنت أعتقد أن السيد ماكلين عجوز جداً».

نقلت نظرها بين الفراش وبين كال، ولاحظت الحدة في نبرته عندما

أجابها:

«انه في منتصف الستينات على ما أعتقد، وهذا لا يعني أنه عجوز جداً».

لماذا نظر اليها بهذا الشكل؟ لقد بدأت تشعر بعدم الارتياح. هل هو شعور المجرم بأنه سينكشف بين لحظة وأخرى؟

وغيرت ڤاليسا مجرى الحديث لاخفاء اضطرابها وقالت:

«الآن فهمت غرضك بتدريبي... فكل شيء موجود هنا».

لكنها ندمت على كلامها لأنها كانت تحاول نزع تلك الفكرة من رأسها.

«ما زلت تفكرين بالغرض. هل تريدين الدرس الأول الآن؟».

تجاوزت الأمور الحد. حاولت ڤاليسا أن تبتسم بصعوبة وهي تقول:

«بالطبع لا... فأنا لا أتوقع...».

قاطعها بهدوء:

«مخالفة؟».

«لقد رأيتك خلال قتال حقيقي، وهذا يكفي. لربما شغلت بك حواسك جيداً. القصد، لا أريدك أن تشعري بالذنب اذا ما حدث... أن كسرت ذراعي مثلاً».

ابتسم برقة وهدوء وقال:

«لا شك انني سأكون حذراً جداً».

«أنا متأكدة من حرصك، لكنني لا أريد الآن».

استدارت ڤاليسا متجهة نحو دراجة التمرين. فوجئت بكال يمسك بذراعها ويوقفها بسهولة.

نظرت الى أصابعه القوية حول ذراعها وقالت بحزم:

«ارفع يدك عني!».

«أجبريني على ذلك».

رمقته باضطراب شديد، فيما كان يتابع قائلاً:

«لو كنت أحمل نوايا سيئة تجاهك لما صمدت لحظة أمامي. عليك بتعلم بعض أسس الدفاع عن النفس، وسيكون هناك عنصر مفاجأة يكفي لانقاذك مني».

ظلت ڤاليسا جامدة في مكانها للحظات، ثم قالت:

«ولماذا انت مصمم على تدريبي؟»

«لأنك واجهت وضعاً خطيراً جداً في طريقك الى هنا، ألا ليس لديك أية فكرة عن سبل المواجهة . . . وأيضاً فأنا لا احب النساء اللواتي لا يستطعن الدفاع عن انفسهن».

ورفع قبضته عن ذراعها تاركاً لها حرية الذهاب، لكنها لم تتحرك. ففي كلامه كثير من الحقيقة. وبالرغم من عدم الاعجاب المتبادل الا انه يعني ما يقول.

قالت بعد تردد:

«اني استطيع حماية نفسي . اذا هاجمتني الآن فسوف ارفع قدمي واركلك بشدة . . .».

قاطعها قائلاً:

«. . . سوف تجدين نفسك ملقاة على ظهرك قبل ان تصل قدمك الى هدفها».

ولما رآها مترددة وغير مصدقة تابع قائلاً:

«تريدين اثباتاً؟ اذن هيا جربي . . . هيا»

اندهشت وقالت باضطراب:

«ربما . . . ربما أؤذيك».

اجابها ضاحكاً:

«سوف اغامر . . . هيا جربي».

هزت رأسها موافقة لأنها تدرك انه يقول الحقيقة:

«لا اريد ان اجرب . اني اصدقك».

والتفتت الى الخلف حيث فراش الجلوس، وارتجفت عندما فكرت بأنه سيرميها الى الفراش بلمحة البصر.

قال لها وكأنه يقرأ افكارها:

«لن اؤذيك بقوة . بل لن تشعري بذلك ابداً. وهذا شيء آخر يجب ان تتعلميه: ان تتقني طريقة السقوط بدون التعرض للأذى».

«سوف افكر في الامر جدياً».

وابتعدت بأسرع ما عنده . الفكرة كلها سخيفة . لن تسمح له بأن يعلمها كيف تدافع عن نفسها، بل لن تسمح له بأن يلمسها . . . ولكنها شعرت

برعشة خفيفة عندما خطرت هذه الافكار في ذهنها.

طردت الفكرة من رأسها ووقفت تتأمل دراجة التمرين وعدادي السرعة والمسافة الملحقين بها، والتلفزيون ومؤشرات المسافة التي «قطعها» الراكب والسرعة التي «سافر» بها. سيكون من الممتع بعد نهار طويل من العمل بين الكتب والغبار، ان تنزل الى الغرفة و«تسافر» عدة اميال على الدراجة. اختفت الابتسامة التي اوجدتها الفكرة عندما رأت كال غريف يراقبها.

«هل هناك شيء آخر تريد ان تريني اياه؟».

قالت بسرعة لأن نظراته تلك اشعرتها بعدم الارتياح.

«الحمامات هنا، وغرف تغيير الملابس الى جوارها... هذا كل شيء».

«حسناً، هل يمكن الآن ان نذهب لتناول القهوة؟ اني متعبة جداً من جراء السفر واريد ان آوي الى فراشي باكراً اذا امكن».

«بالطبع . فالقيادة الطويلة متعبة جداً».

سارا معاً باتجاه الصالون . التوتر كان طبيعياً عليهما، ومن الممكن ان يتفجر في اية لحظة اذا لم تكن حريصة، خاصة ان شعورهما بعدم الاعجاب المتبادل يجعل الأمور اكثر خطورة. وتساءلت عن السبب في هذا الشعور وهما لم يلتقيا الا منذ ساعتين قليلة.

قبل ان تأوي الى فراشها قررت فانيسا ان تنظر الى الأمور من زاوية مختلفة في صباح الغد، انها متعبة، ولم تكن كاذبة عندما قالت لكال غريف ان السفر قد انهكها. فالحادث المزعج الذي كاد يقع لها خلق ردود فعل عديدة . هناك اشياء كثيرة يجب ان تشكره عليها، لكنه جعل الأمر صعباً للغاية . رتبت وضع وسادتها ودخلت الى فراشها بعد ان اغلقت الباب بإحكام . كانت القهوة بانتظارهما في الصالة عندما خرجا من غرفة الرياضة، ولم يكن هناك من اثر للسيدة ماكس او زوجها . لعلهما لا يبيتان في القصر. يعني . . . ضحكت فانيسا في سرها وهي تسحب الغطاء الى كتفيها . فكال غريف غير معجب بها، ولن يحاول بالتالي ان يتسلل الى غرفتها . استلقت على ظهرها وحدقت في السقف طويلاً . رأت شقوقاً متشعبة تخرج في كل اتجاه . حاولت ان تتصور اشكالاً في هذه الشقوق، لكنها لم تستطع لأن الخطوط بدأت تغيب عن ناظريها . رفعت يدها وجذبت الخيط الذي

يتحكم بالأنوار . . . فقتله وماتت.

استغربت ڤاليسا عندما استيقظت باكراً. ما الذي جاء بها إلى هذا المكان الغريب؟ لكن سرعان ما عاد إليها سيل الأحداث التي وقعت بالأمس. نقلت عينيها في انحاء الغرفة تستكشفها على ضوء الفجر الباكر. كل شيء يبدو مختلفاً، والنور المنسكب من خلف الستائر اظهر اتساع الغرفة وتناسقها الجميل. غادرت فراشها واتجهت إلى النافذة.

كان الضباب الكثيف يغطي الأرض، فظهرت الأشجار والزهور وكأنها غارقة في بحر من الدخان الأبيض. السكون يلف المكان. عادت إلى سريرها واستلقت عليه برهة. في هذه الأثناء كان الضوء يشتد في الغرفة، وادركت ڤاليسا انها لن تستطيع العودة إلى النوم مجدداً خاصة ان عقلها مليء بالأفكار المتضاربة.

بلغت الساعة السادسة والنصف. وقد ابلغها كال امس ان طعام الافطار سيقدم عند الساعة الثامنة والنصف. وهذا يعني ان هناك متسعاً من الوقت للاستحمام وارتداء ملابسها والذهاب في نزهة قصيرة.

ملأت ڤاليسا المغطس بالمياه الساخنة وهي تفكر ان نزهة قصيرة حتى الأبواب الخارجية لحديقة المنزل ستساعد على فتح شهيتها للافطار وتعدها لتحمل التعب في نهار الكلية. ولكن من الأفضل ان تأخذ حمامها الساخن بعد هذا النهار؟ لعل حمام المساء افضل؟ في كل حال تستطيع ان تستحم مرة اخرى. فقد اخبرها كال من ضمن ما اخبرها امس، ان المياه الساخنة جارية بشكل دائم في المنزل . . . فالمجرى المائي الذي ينبع من سفح الجبل يؤمن للمنزل احتياجاته من الماء، بالاضافة إلى انه يسير المحرك الذي يولد الكهرباء ايضاً.

وعندما استلقت ڤاليسا في المغطس الساخن، استعادت ذكرى السهرة القصيرة التي امضتها مع كال امس حول فنجان القهوة. ورغم كل شيء، لا تستطيع ان تنكر انها كانت هدنة مسلية وسط نهار مليء بالمواجهات. لقد حاول جهده ان يكون ساحراً ولطيفاً، ربما تعمد ذلك لكنها ليست متأكدة. واستطاعت ان تشاهد جانباً آخر غير متوقع من شخصيته.

ارتدت ملابسها وهي تفكر كيف سيكون نهارها الأول هنا. ولأنها خافت من البرودة في الخارج بعد حمامها الساخن، وضعت على كتفيها

معطف الفرو الناري اللون وتسللت بهدوء من غرفتها إلى الطابق الأسفل.

وحدها ساعة الحائط الاثرية كانت مستيقظة من خلال دقاتها الرتيبة. وما عدا ذلك لم تسمع ڤاليسا اي شيء في البيت الذي بدا مهجوراً. انها السابعة وعشر دقائق من صباح احد ايام يونيو (حزيران)، واليوم سترى جندا لأول مرة. سوف تراه وتتحدث إليه كأنه غريب. هو لن يعرف الحقيقة حتى اليوم الأخير، وعندها يكون الأوان قد فات لأنها ستغادر.

احست بالعرق البارد ينصب من راحتي يديها، فأسرعت تغادر البيت إلى الهواء الطلق. وقفت لحظة امام الباب تستقبل الهواء البارد المشبع بالرطوبة وهو يلفح وجهها. لقد انقشع الضباب قليلاً واصبح الطريق المعبد مرئياً إلى حد ما، بالرغم من ان الأشجار كانت ما تزال في بحرها الأبيض الساكن. ابتسمت بعطف وهي تشاهد الأرانب تهرب من الطريق عائدة إلى الأشجار. لو ان هذه الأرانب الجميلة تعرف انها لا تريد بها شراً؟

من الواضح ان الجو ينبئ بطقس مشمس جميل هذا النهار. شعرت ڤاليسا بقشعريرة تسري في جسمها. ها هي هنا الآن ملتزمة بإنهاء ما عزمت عليه - بغض النظر عن النتائج - ولا يمكن ان تتراجع ابداً.

هل هي نادمة لأنها تركت عملها؟ الزمن وحده سيجيب. كان عليها ان تترك العمل في اي حال خاصة ان رئيسها اصبح مزعجاً مضجراً، وباتت لا تحب ان تدخل إلى مكتبه لتلقي التعليمات منه. اطبقت عينيها قليلاً. ان كال غريون على حق فيما يتعلق بمسألة الدفاع عن النفس. منذ ان بلغت السادسة عشرة، وتحول جمالها الطفولي إلى فتنة نسائية طاغية، والرجال يحومون حولها دائماً مما سبب لها الكثير من المتاعب. صحيح انها ترتاح لقدرتها على التأثير في الجنس الخشن، لكن هناك جانب آخر للجمال فقليل جداً من عرفتهم في فهمه والتعامل معه. فالجمال يسبب التعاسة والغيرة والشك لدى المعجبين الكثار، وايضاً لدى صديقاتها اللواتي اخذن يتجنبنها ويحاولن ابعاد رجالهن عنها مهما كلف الأمر.

والآن، لأول مرة في حياتها، وجدت الرجل الذي لم يقع تحت تأثيرها . . . بل هو معاد لها، حتى ان احداً من الذين عرفتهم لم يعاملها كما عاملها كال غريون. معاملته ليست فقط مزعجة بل متحدية ايضاً . . . واشياء اخرى كثيرة لم يجرؤ احد من قبل على التعامل معها بهذا الشكل،

ناعمة عندما واجهها بحقد في المرآة. لقد عندها بالفعل. فهي
انطلقت على الأعصاب العميق من الجميع بحيث شكل لها أسلوبه الفظ
صدمة عنيفة. كم كان مرعباً مدها. وفجأة، عادت فاليسا إلى الواقع على
صوت عواء حاد... شاهدت أمامها كلب حراسة ضخماً وقد تحفز
للهجوم.

تجمدت فاليسا في مكانها. تعرف من خبرتها أن عليها عدم القيام بأية
حركة. فجأة سمعت صوت رجل موجود في مكان ما بين الأشجار:

«لا تتحرك يا شيبا»

اجتاحتها موجة عارمة من الارتياح. ولم تعد قدماها قادرتين على حملها
وهي ترى رجلاً طويلاً في ثياب سوداء يتجه نحوها. كان في مقتبل العمر،
قوي القامة له ملامح الغجر السمراء. ابتسم عندما التقت نظراتهما، وقال
بلهجة مرحة:

«صباح الخير»

لهجته الاسكتلندية كانت مليئة بالاحترام ولاحظت فاليسا نوعاً من
الخجل في تعابيره وتصرفاته.

«صباح الخير. هل هذا كلبك؟»

«نعم»

ثم خاطب الكلب قائلاً:

«الآن يا شيبا عد إلى البيت»

نظر الكلب إلى صاحبه ثم أطاع الأمر وسار بعيداً. تنفست فاليسا
بارتياح عميق.

اعترفت قائلة:

«كنت... متوترة إلى حد ما»

«أنت تعرفين أن شيبا لم يتوقع أن يرى أحداً. فهذه المنطقة خاصة»

كان يستعمل لهجة مرحة الدلالة في محاولة لإيضاح الموقف دون اتهامها
بالتسلل إلى البيت.

«أعرف ذلك. إني أقيم هنا»

فجأة شاهدت في عينيه نظرة تحدٍّ

«إذاً أنت... الآنسة التي جاءت لتنظيم المكتبة؟»

«نعم»

واضطرت إلى مواجهته بغضب عندما انفجر ضاحكاً. لكنه استدرك
بسرعة وقال:

«أنا آسف. إني أضحك لأنهم طلبوا مني أن أعطي بعض الوقت
للمساعدة في تنظيم المكتبة... وقد حاولت التملص من ذلك»

ثم أضاف مبتسماً:

«ولكنني تأكدت الآن من أني أخطأت بالرفض»

كان هناك شيء جذاب في هذا الرجل... وشيء آخر بدا لها مألوفاً.
لكن فاليسا استبعدت الأمر. لقد ارتاحت لأنها التقت رجلاً لا يتعمد أن
يكون فظاً.

«أنا متأسفة أيضاً»

ثم أضافت باستغراب:

«تساعدني في ماذا؟ لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى...»

قاطعها قائلاً:

«أساعدك في الكتب. أقصد إنزالها عن الرفوف العليا. فهناك أماكن
يصعب على المرأة الوصول إليها»

هزت رأسها موافقة:

«آه... لم أفكر في ذلك»

«ومتى ستبدأين العمل؟»

«اليوم. لكن أليس عندك عمل آخر؟»

«بالطبع. أنا البستاني، وأعمل هنا مع أبي وعمي... وهما سيتدبران
الأمر من دوني»

لم يكن في طول كال غريير، لكنه كان أضخم منه وأقوى مظهراً.
اقترب من فاليسا ووقف أمامها قائلاً:

«أنا لوري ماكينزي»

من الواضح أنه ينتظر سماع اسمها، ومع ذلك لم يسأل مباشرة. ليس
مثل كال الذي طالبها باسمها. لكن لماذا تعود هذه الأفكار لتزعجها الآن؟

مدت إليه يدها مصافحة وهي تقول:

«أنا فاليسا كوينز»

كانت يده دافئة وقوية.

«سوف أذهب الآن، آنسة كولينز، لكني سأعود إلى البيت الكبير في وقت لاحق. . . سوف تباشرين العمل بحدود الساعة التاسعة، أليس كذلك؟».

«بعد ذلك، فالسيد ماكلين لم يحضر بعد، والسيد غرين هو المسؤول في هذا الوقت».

لم يكن هناك سبب لقول هذه الجملة، لكن لعلها أرادت أن تعرف شيئاً ما عن الرجل الذي ستقابله هذا النهار.

«آه. . إنه هو».

ربما صوته كانت غريبة، وللحظة اعتقدت أنه يقصد بعدها، لكن كلامه اللاحق بيّن لها خطأها.

«سوف آتي مباشرة إلى المكتبة وأساعدك. فذلك الرجل سيطلب مني مغادرة البيت إذا ما شاهدني».

وكان على وشك أن يضيف شيئاً آخر، لكنه توقف.

«والسيد غرين؟ [illegible]».

«[illegible] لوري ماكنزي».

«لقد [illegible] قال [illegible]».

رفع يده مودعاً، وتنقل [illegible] ثم اختفى بين الأشجار.

سارت عائدة إلى البيت وهي أكثر فضولاً من ذي قبل.

راقبت فانيسا كال غرين على مائدة الفطور. أرادت أن تشير إلى لقائها بلوري ماكنزي، لكنها خشيت أن يعرف كال أن لوري سوف يأتي إلى مساعدتها في المكتبة. لذلك التزمت فانيسا الصمت. أرادت أن تعرف لماذا يكره لوري كال إلى هذا الحد؟ وهل المشاعر متبادلة بين الرجلين؟ ولم تكن تدرك أن الجواب سيأتي قريباً جداً، وبطريقة غير متوقعة.

٣- ما هو اسمك الحقيقي؟

بعد الساعة التاسعة بقليل، دخلت فانيسا وكال المكتبة. وكانت الشمس تملأ الغرفة من خلال النوافذ الواسعة ذات التصميم الفرنسي. حاولت فانيسا جاهدة مقاومة الشعور بالانزعاج. إنها مهمة صعبة، لكنها هي التي قررت المضي فيها بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. [illegible] على الطاولة الخضراء في منتصف الغرفة رداء واقياً. رفع كال الرداء وقدمه لها.

«[illegible] الأوساخ والغبار».

كان صوته هادئاً وخالياً من أي معنى، لكن فانيسا شعرت -مرة أخرى- بشيء مزعج يحيط بها. . . نوع من التوتر الحاد الذي لم تفهمه ولم تحبه.

«شكراً لك». [illegible]

كان الرداء مصنوعاً من النايلون ولا يصل إلى منتصف الساق، ومع ذلك فهو يفي بالحاجة. نظرت إلى الطاولة وقالت:

«سأضع الكتب عليها تمهيداً لفهرستها، فهل من مانع؟».

سار كال إلى إحدى الزوايا وأشار بيده إلى مجموعة من الصناديق وقال:

«الأوراق والبطاقات وكل ما تحتاجين إليه موجود هنا».

ثم سأل:

«سوف تحتاجين إلى مساعدة عندما تصلين إلى الرفوف العليا، أليس كذلك؟».

لم تكن تريد ان تتطرق الى هذه النقطة، ولكن من الغباء الا تعمل الآن.
اجابت وهي تراقب وجهه:
«هناك شخص سيأتي لمساعدتي».
قطّب حاجبيه وقال:
«من ذا تقصدين؟».
«ذهبت في نزهة هذا الصباح، فالتقيت برجل يدعى لوري ماكنزي فقال لي انهم طلبوا منه مساعدتي...».
لم يتركها تكمل جملتها.
«لوري؟».
ولاحظت انه ذكر الاسم بالطريقة التي ذكر فيها لوري اسمه.
واتسعت عينا فاليسا وسألت بريبة:
«وهل هناك شيء غير طبيعي؟».
نظر كال اليها ملياً. لم تكن هناك اية تعابير على وجهه، لكنها احست بالغضب الشديد يعصف به وهو يحاول السيطرة على نفسه. قال:
«لا شيء. لو كنت مكانك لراقبته جيداً... فقد تواجهين المتاعب معه».
«المتاعب؟ ماذا تقصد؟».
ظهر عليها الاستغراب، بالاضافة طبعاً الى محاولتها لعب دور الطفل البريء... لكنها تساءلت ما يمكن ان يفعله هذا الرجل.
رد بجفاف:
«اتركي هذه الألاعيب، ولا تلعبي دور البريء المسكين، فهذا لن ينطلي عليّ. انت تعرفين تماماً ما اقصد، بل يجب ان تعرفي. انت بالغة بما فيه الكفاية. ام هل تعتقدين ان الشابين اللذين هاجماك بالأمس كانا يريدان تقديم الاحترام والطاعة لسيادتك؟».
جاهدت فاليسا للاحتفاظ بهدوئها. لم ترد ان ترفع صوتها لئلا يفضح اضطرابها. فقالت بصوت خفيض:
«انت مخطئ».
«اذا كانت تصرفاتي الغريبة ستضع بعض العقل في رأسك... فلا بأس. انا لن اكون موجوداً دائماً للدفاع عنك. المسألة كلها ان لوري ماكنزي

ذئب خبيث. وأشك ان تقدري على التعامل معه».
«انا قادرة على ذلك تماماً. عندي من التجارب ما يكفي لاعرف كيف اتصرف مع كل الرجال».
التمعت عيناها السوداوان بالغضب وقد استعادت ثقتها بنفسها.
«ستقول بعد قليل ان عليّ الا اشجعه... هذا ما اوحيت به امس ايضاً».
«حسناً، اياك ان تشجعيه. اشغالي تكفيني، ولا اريد ان اسمع صراخك طلباً للمساعدة».
«فلماذا لا ترحل وتتركني لوحدي؟».
رمقته بغضب وهي تجمع قبضتي يديها بشدة. يا له من رجل عنيد ومغرور.
«وفري تكبّرك هذا».
كان يراقب يديها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة «لقد حذرتك لما سيحدث لك اذا ما تعرضت ليّ».
«اذهب من هنا فوراً».
«انا ذاهب. الغداء سيكون في الواحدة ظهراً، والسيدة بانكس ستقدم القهوة عند الساعة الحادية عشرة».
راقبته فاليسا وهو يغادر المكتب بهدوء. تضاربت المشاعر في صدرها. لم تلتق باحد من قبل يشبه كال فرين. انه يحيرها بالفعل.
ظلت صامتة للحظات ثم استدارت تتفحص رفوف الكتب المتراصة. بعض الكتب كانت قديمة للغاية وقد اصفرّت اوراقها وتفتت الجلد الذي يغلفها. رفعت كتاباً عن الارض ونفضته بعد ان تفحصت طبقة الغبار التي كانت تعلوه. كان مجلداً يجمع اعداد احدى المجلات للعام ١٦٦٧، وكانت اوراقه مصفرّة بعامل الزمن ومتشققة في عدة اماكن، لكن الطباعة كانت واضحة بالرغم من صغر حجم الحروف. حملت فاليسا المجلد بعناية، فأحست -كالعادة- بأنها عادت الى تاريخ سحيق. شعرت برغبة في تصفح المجلد، لكنها ابعدته مباشرة. لعلها تستطيع ذلك عند الساعة الحادية عشرة، وقت تقديم القهوة
كانت على وشك ان تضع الرداء فوق ملابسها عندما سمعت الباب

يفتح، وبه دخل لوري ماكبيري. عادت اليها على الفور كلمات كال عن لوري، لكنها استبعدتها بسرعة وافتعلت ابتسامة عابثة. لمن المستخف ان تترك اعصابها نهباً لذلك الرجل.

حيته قائلة:

«اهلاً بك، كنت على وشك المباشرة في العمل».

رد على تحيتها بمثلها. كانت ابتسامة ناعمة خجولة، وليست ابداً ابتسامة قاتل.

قالت:

«كتب كاس الرفوف هنا. وسأكون ممتنة للمساعدة التي ستقدمها».

كان ينظر اليها بتأمل. ومع انها اعتادت هذه المواقف، الا انها احست برعشة تسري في اطرافها. هل من المعقول ان يستغل وجوده معها؟ كل شيء ممكن حتى مع اكثر الرجال هدوءاً وخجلاً. ولذلك وجدت سلوك كال غريباً، اذ لم يبد عليه انه يفكر بالتقرب اليها بالرغم من انه رجل طبيعي بكل معنى الكلمة.

لكن لوري يختلف عن كال. انه هنا لمساعدتها. وسوف تتعقد الامور اذا ما امضت الوقت في مراقبته. لذلك قررت فاليسا ان تتجنب كل ما يمكن ان يساء تفسيره بحيث لا تدع مجالاً لأحد. ابتسمت له ببرود وقالت مشيرة الى الكتب عندئذ:

«سأبدأ من هنا. ومن الافضل ان نجمع الكتب على الطاولة ثم نقوم بالتسجيل».

«سأتناولها من فوق واضعها على الطاولة».

نزع سترته الجلدية الرقيقة فكشفت عن قميص داكن الزرقة. كان صدره عريضاً وذراعاه قويتين. وضع سترته على كرسي قريب وتوجه الى احدى الزوايا وعاد بسلم خشبي.

انقضى ربع الساعة الاولى في عمل متواصل بنزل الكتب عن الرفوف ونضعها الى الطاولة. عمل بسرعة ونشاط، وعندما وصل عدد الكتب الموجودة على الطاولة الى حوالي مئة كتاب، توقف عن العمل ونظر الى فاليسا.

«هذا كاف على ما اعتقد» ثم اضاف «وانت بحاجة الى مساعدة من

الطاولة الكتابة».

«نعم، وشكراً لك».

«سوف اساعدك».

نظرت اليه فاليسا باستغراب. ماذا يقصد؟

شاهد نظرتها وابتسم:

«سأساعدك في ترتيب الكتب حسب التسلسل.

أليس هذا ما ستفعلينه اولاً؟»

«اجل، ولكن...»

«وبهذه الطريقة تسير الامور بسرعة اكبر بالنسبة اليك والي».

هزت رأسها موافقة.

«هذا جيد. لكنني لا اتصور...»

«ماذا؟ انا اعرف القراءة ايضاً».

«لم اقصد ذلك».

اعترضت بسرعة قبل ان ترى ابتسامته وتدرك انه يمزح.

«وادرك انك لم تقصدي شيئاً. على كل سيكون الامر مثيراً، خاصة مع الكتب القديمة».

«والآن من الافضل ان نبدأ الآن. في الواقع ربما تكون لديك افكار افضل مني. كنت سأسجل كل عناوين الكتب مع اسماء المؤلفين والمراجع الاخرى، ثم اعيد ترتيبها مع اشارة محددة عند كل عشرة كتب او...»

«لكن عندي فكرة افضل. لنفترض انك...»

راح يشرح خطته بهدوء وتفصيل وهو يحمل كتاباً من هنا ويقلب صفحات كتاب آخر من هناك. وكانت فاليسا تفكر وهي تراقبه: انه شاب لطيف. فلماذا لا توجد علاقات طيبة بينه وبين كال؟ لعل الامر مجرد عداء طبيعي، وهو كثيراً ما يحدث دون اسباب... وقد حدث بالفعل بيني وبين كال.

ولم يكن هناك متسع من الوقت للتحدث او التفكير اذ غرقا في دوامة العمل. ومضى الوقت بسرعة بحيث فوجئا بالسيدة بالكنس تدخل عليهما بالقهوة عند الساعة الحادية عشرة. وعندما شاهدت السيدة بالكنس لوري قالت:

«وسأحضر لك فنجانا آخر».

ابتسم لفانيسا التي كانت تراقب قهوتها وتساءلت عما اذا كان سيحضرها غير مهتمة اذا ما انقلبت رشفة من فنجانها.

قال:

«ألا انك تعتقدين بأنها تحبني؟».

كان كال قد قال شيئاً ما عن ان اقوال السيدة بانكس اكثر من الفاظها لعله على حق. هزت فانيسا رأسها وقالت:

«كلا هل تكرهك؟».

«أجل، بطريقتها الخاصة. يجب ان تتعرف الى زوجها، فهو لا يفتح فمه بكلمة اذا استطاع ذلك، ومع ذلك فهي طاهية ممتازة. ولهذا السبب لا يتركها الرجل العجوز ترحل».

هذه هي الفرصة، واستغلتها فانيسا بسرعة:

«لم التق بعد بالسيد داكلين، هل تعتقد انه شخص مناسب للعمل معه؟».

«بالطبع. انه رجل ممتاز.. عندما يعرفه الانسان بشكل عميق».

لكن النبرة التي حيرت فانيسا من قبل كانت ما تزال موجودة في كلامه.

«وماذا تقصد بالتحديد؟».

«حسناً. انه فظ في البداية. قد لا يكون لطيفاً معك لكونك امرأة... لكنه قادر على ذلك مع الرجال».

خفق قلب فانيسا بشدة. ما الذي دفعها الى هذا الموقف؟ لكن ما الذي كانت تتوقعه؟ بالطبع لن تقابل رجلاً لطيفاً، خاصة بعد الذي سمعته عنه من ابيها...

«حدثني عنه قليلاً».

فكر لوري قليلاً:

«انه طويل القامة، نحيف بعض الشيء، مهووس بالمحافظة على رشاقته، يمشي عدة اميال يومياً. ولا شك انك رأيت غرفة الرياضة».

«شاهدتها بالفعل. كان عرض احدهم اليها مساء امس».

ووجدت نفسها مدفوعة لأن تضيف قائلة:

«ولقد وعد باعطائي بعض الدروس في الجيدو».

احتقن وجه لوري بالغضب. وكان على وشك ان يقول شيئاً عندما انفتح الباب ودخلت السيدة بانكس حاملة فنجان القهوة الثاني.

«وهذا فنجانك».

وضعته على الطاولة ونظرت الى فانيسا قائلة:

«والغداء يقدم في الساعة الواحدة...».

ثم غادرت الغرفة.

تساءلت فانيسا عما كان سيقوله لوري، اذ انه حاول جاهداً اغفال وجود السيدة بانكس ان يطرد من نفسه مشاعر الغضب. لكنه عاد الى طبيعته الآن وقال:

«لو كنت مكانك لابتعدت عن مضايقته».

«ولماذا؟».

نظر اليها بحدة:

«لأنه ثعلب. عرضه لك هو مجرد عذر...».

قطع حديثه فجأة ورفع فنجان القهوة الى شفتيه.

استغربت فانيسا كيف حافظت على طبيعتها. كال حذرها اولا من لوري، والآن لوري يحذرها من كال. القصة كلها مضحكة، لكن الاثنين جادان في تحذيرها.

«يا الهي، هل هو كذلك؟» وراقبته وهو يفرغ علبة السجائر. قدم لها سيجارة، فرفضتها قائلة:

«لا ادخن، شكراً».

«هل تمانعين في ان ادخن؟».

«لا ابداً! لماذا تقول انه ثعلب؟ فانا لم اره كذلك؟».

بدا الغضب واضحاً على وجهه عندما اجاب:

«لأنه ذكي جداً في اخفاء احتياله. لكن عليك ان تسألي اختي عن الحقيقة فهي تعرفه اكثر من اي انسان آخر... اجل اختي. لقد رحلت الآن الى ايرلندا... هي تستطيع ان تخبرك اشياء عديدة عن كال غريس».

«ومتى رحلت؟».

«منذ اكثر من شهر تقريبا. انها تعمل الآن في فندق خالي، وتقول انها لن تعود ما دام كال هنا».

كان ينظر الى الباب وكأنه يخشى ان يدخل الشخص الذي يتحدث عنه. تناولت فانيسا جرعة كبيرة من القهوة لترطب فمها الجاف. وتملكتها رغبتان: الأولى في ان تسمع المزيد، والثانية ان تقول للوري انها لا تريد ان تسمع شيئاً آخر. لكن لوري حل المشكلة عندما وقف واضعاً سيكارته في المنفضة وشرب قهوته دفعة واحدة.

«حسناً، لقد قلت ما فيه الكفاية. يجب ان اعود الى عملي بعد تناول الغداء. قبل ذلك سأجهز لك من الكتب ما يكفي لعملك هذا اليوم».

«شكراً لك. هل تعرف متى سيعود السيد ماكلين الى البيت؟».

اجاب قائلاً:

«انا لا اعرف، لكن السيدة بلاكني يمكن ان تخبرك. لماذا تسألين؟».

«انه صاحب العمل... واعتقد انه».

فاجأها بابتسامة صفراء:

«حاولي الاستفادة من الوقت قبل ان يحضر».

لكنه استدرك قائلاً:

«كنت امزح فقط. انه ليس سيئاً على الاطلاق. فقط» تردد قليلاً ثم تابع «من الصعب شرح ما اقصد بكلمات قليلة. فهو يبدو في بعض الاحيان وكأنه ينظر من خلال الانسان، اي كأنه لا يراه ابداً او انه يبعد عشرات الأميال... انه غريب جداً».

تمتمت فانيسا بصمت: اين يكون عندما يذهب بعيداً؟ هل يسترجع الاحداث الماضية ويندم لما فعله؟ هل يعرف ان ما قالت قد مات؟ ربما لن تعرف ابداً. شيء ما تحقق في داخلها. انها تريد ان تلتقي هذا الرجل، جدها، ولكنها في الوقت ترغب بالهرب وتنسى كل شيء عن «ونستون هاوس». اطرقت تنظر الى يديها. كلا، يجب ان لا تفعل ذلك ابداً. عليها ان تستمر حتى النهاية.

«هل انت على ما يرام؟».

«ماذا؟ آه... انا متأسفة».

هزت فانيسا رأسها وابتسمت بعمق للوري ناسية قرارها بابقاء مسافة بينها وبينه.

«كنت افكر».

وشاهدت وجهه يحمرّ. التمعت في عينيه السوداوين ملامح دافئة... فحوّلت نظرها عنه وشغلت نفسها باحد الكتب.

بعد عشر دقائق وقع المحظور. كانت قد توجهت الى احد الرفوف للتأكد من كتاب وضعته هناك قبل قليل، وعندما رفعت رأسها، شعرت به خلفها تماماً حتى قبل ان تلتفت اليه. تنفست بعمق، ثم احست بيده اليسرى على ذراعها فالتفتت بهدوء وقالت:

«نعم، ماذا...؟».

ماتت الكلمات اذ انحنى نحوها وعانقها بكلتا ذراعيه.

دفعته بعيداً عنها بدون غضب وقالت:

«لماذا فعلت ذلك؟».

ابتسم لوري قائلاً:

«احسست برغبة في ذلك».

كان وجهه شاحباً عندما نظر اليها.

قالت بحزم:

«ارجوك ان لا تكررها. يجب ان تتذكر اننا نعمل معاً فقط، وليس اكثر من ذلك».

«سأحاول ان اتذكر. هل كنت سترحبين بالأمر لو كان كال مكاني؟».

كبتت فانيسا موجة عارمة من الغضب وقالت:

«بالطبع لا. وعلى كلٍّ فان الأمر لا يعنيك اطلاقاً».

«هذا افضل. فانا لا يمكن ان اتصوّرك بين ذراعيه».

اجابته ببرود شديد:

«اذن لماذا لا تفكر بعملك بدلاً من الافكار الاخرى؟».

طفت ابتسامة كبيرة على شفتيه وهو يقول:

«انك قوية بالفعل. انا احب الفتاة التي تتأجج بالنار».

ابتعدت فانيسا عنه باتجاه الطاولة. وضعت الكتاب الذي كان بيدها ثم عادت نحوه وهي تقول:

«اسمع. يبدو انك خرجت عن حدودك. انا اشكر لك مساعدتك في الكتب، لكنني متأكدة من قدرتي على الاستغناء عن خدماتك اذا كنت سأضطر الى مراقبتك طوال الوقت. هل كلامي واضح؟».

التمعت عيناها بالغضب وامتلأ خداها بالدم، وهي تقف متحدة وكلة بالنفس بينما كان لوري يقترب نحوها.

في هذه اللحظات بالذات دخل كال الغرفة. فخيّم جوّ من الصمت المتوتر لثوانٍ معدودة، قطعه كال بصوته العميق قائلاً:

«جئت لأرى إن كان كل شيء على ما يرام».

استدارت نحوه قائلة:

«الأمور ممتازة، شكراً لك».

حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع. في حين كان كال يوجه نظرة عدائية إلى لوري.

«هل واجهت أية متاعب مع الكتب؟».

قابل لوري نظرة كال بنظرة مثلها... وتذكرت فانيسا التي كانت تراقب المشهد ملياً انه يشبه كلبين في شارع مهجور، كل منهما يزن قوة الآخر ويستعد للهجوم في أية لحظة.

«لا متاعب على الإطلاق. والأمور تسير على خير ما يرام».

وحاولت أن تضع ابتسامة مصطنعة على وجهها. فقد قررت بينها وبين نفسها أن تثبت في موقعها وتنتظر ما سيحدث. لأن ما يجري الآن لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد.

هز كال رأسه دون أن يعبر وجهه عن مشاعره.

«حسناً، سأترككما لتكملا العمل».

ثم غادر المكتبة وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه الثائرة. وعندما أغلق الباب التفت لوري إلى فانيسا وأطلق صفيراً متقطعاً

قال لوري:

«حظنا جيد أنه لم يدخل قبل ثوانٍ. ترى ماذا كان سيفعل لو رآني وأنا أعانقك؟».

«اسكت لوري».

ثم أضافت وهي تحاول اخفاء دهشتها:

«كنت تفضل ذلك! عندها سيقع الشجار بينكما وهذا ما تريده».

انقبضت عضلات وجهه وهو يقول:

«لكن الفرصة المناسبة لضربه... إذا كان هذا ما تقصدين!».

عقدت فانيسا حاجبيها وقالت:

«إذن من الأفضل أن أحذّرك. لقد تعرضت وأنا في طريقي إلى هنا لمشكلة مع شابين يركبان الدراجات النارية. واستطاع كال أن يطيح بهما أرضاً بلمح البصر مع أن أحدهما كان يحمل زجاجة فارغة. لم أر مثل ذلك المشهد في حياتي، وآمل أن لا أرى مثله في المستقبل. وحتى لو كنت تكرهه فيجب ألا تستهين به، فهو أقوى بكثير مما يبدو عليه».

أجاب لوري بنعومة:

«أستطيع تدبير أمري معه. فقط أريد الفرصة المناسبة».

راقبته فانيسا ملياً. إنه قوي وصلب العود. ترى لماذا يرغب الرجال في القتال دائماً؟ ولماذا يحلون جميع المشاكل بالقوة الجسدية؟ أحست بأنها تعبت من هذه الأجواء التي أصبحت مزعجة للغاية، ولعل أحداث الأمس، أو ربما كان يحدث بالأمس، هي مصدر تعبها.

وحتى حلول موعد الغداء، كان سلوك لوري مثالياً. جهز عشرات الكتب بحيث لا تضطر فانيسا إلى تناول أي منها طيلة اليوم مهما عملت بسرعة. ولم يحاول أبداً أن يلمسها ولا أن يقترب منها. وقبل دقائق من الساعة الواحدة قال:

«سوف أذهب الآن، ولكني سأعود صباح الغد إذا لم يكن عندك مانع؟».

أجابت:

«شكراً لك. السيد ماكين سيكون هنا في ذلك الحين، فهل تعتقد أنه يمانع؟».

«هو الذي اقترح الفكرة أساساً». وأضاف مبتسماً «وعندما يراك سيدرك فوراً لماذا غيرت رأيي. فهو معجب بالنساء الجميلات أيضاً».

لكن مزاجها لم يكن ليتقبل الاقتراحات:

«إذن، أراك صباح غد. يجب أن أذهب الآن وأستعد للغداء».

خلعت الرداء الواقي ووضعته على الكرسي قبل أن يتحرك لوري لمساعدتها. ثم خرجا معاً من المكتبة

كانت غرفة الطعام خالية تماماً عندما دخلتها فانيسا بعد عشر دقائق وأول ما لاحظت كان وجود كرسيين فقط حول الطاولة. نظرت إليها بطريقة

غريبة، اذ هذا يعني ان جنعم لم يأت بعد. جلست في المكان الذي شغلته امس، فأحست بموجة حارة من الوحدة تجتاح نفسها. فجأة دخل كال غرين الغرفة، فبذلت جهداً كبيراً كي تخفي الأسى الذي كان واضحاً في عينيها.

جلس كال في مواجهتها وعلى وجهه تعبير غريب وفي عينيه نظرة متفحصة وكأنه يعرف ما الذي يجري في المكتبة. واخيراً حطمت كلماته جدار الصمت:

«انا متأسف اذا كنت قد دخلت عليكما في الوقت غير المناسب». ولكن فانيسا لم تجد في صوته ما ينم عن الأسف فعلاً.

اجابته بهدوء:

«لا ابداً، كنا مشغولين في ترتيب الكتب، هذا كل شيء».

«هل كنتما فعلاً؟ بدا لي ان في الجو تقاتلاً حاداً... لكن المسألة لا تعنيني على اي حال».

اجابت موافقة:

«معك حق، المسألة لا تعنيك ابداً».

في تلك اللحظة دخلت السيدة ناكس، فقطعت ما كان كال على وشك ان يقول. تركت لهما الحساء وبعض الخبز، وقالت:

«سأعود بعد دقائق. الغداء اليوم فطيرة بالجبنة، فاستعدا لها».

فكرت فانيسا: لو كنت هنا مع شخص آخر لضحكنا على طريقتها في الكلام، لكن هذا الشخص المتعالي... لماذا هو هكذا، لماذا؟

انحنت نحو طبق الحساء الذي كان ساخناً جداً، وما ان لمست الوعاء حتى سمعت زعيقاً حاداً من الخارج فقفزت مذعورة واضطراباً. اصطدمت بالطاولة فاهتز الطبق وانسكب الحساء الساخن على يدها اليمنى. انطلقت من فانيسا صرخة ألم عالية وهي تحس حرارة الحساء تلسع يدها بشدة. ركض كال نحوها وامسك معصمها بيده وسكب محتويات ابريق الماء على الجزء المصاب. طلب منها بصوت آمر ان تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها فوراً. اطاعت دون اية مقاومة وسمعته يقول:

«سأحضر بعض الاسعافات الأولية، دقيقة واحدة فقط».

عادت اليها موجة الألم اشد مما كانت، ولكنها لم تتحرك من الكرسي.

كان صوته آمراً بحيث لا تستطيع ان تخالفه. لم يغب كال سوى لحظات معدودة عاد بعدها وهو يحمل صندوقاً وضعه على الطاولة وفتحه بسرعة... ثم اخرج مرهماً اصفر اللون ودلك به الجزء المصاب.

قال لها وهو يواصل التدليك:

«الصرخة التي سمعتها هي صوت الطاووس. صحيح انه يصدم الانسان للوهلة الأولى لكنك ستعتادين عليه بسرعة».

«طاووس!».

تساءلت بصوت هامس وهي تضغط على شفتيها لتحبس صرخة ألم.

«هذا أفضل، أليس كذلك؟».

كان كلامه بارداً وهادئاً، وقد اختفت العداوة بينهما على الأقل لبعض الوقت.

«اجل، شكراً لك».

نظرت الى الطاولة، فصدمتها الفوضى التي سببها الحادث. شعرت بالدموع تقفز الى عينيها وهي تقول:

«انا اسفة».

تأملها وهو ينظر بدوره الى الطاولة.

«لا تهتمي، فالسيدة ناكس سترتب كل شيء في لحظات».

قالت له معتذرة:

«لم تتناول حساءك بعد».

كان يلف قطعة من القماش حول يدها، في حين بدأ الألم يخف بفعل الدواء الذي وضعه. اجاب قائلاً:

«انه كان ساخناً جداً. هل تريدين ان احضر لك صحناً جديداً؟».

هزت رأسها:

«كلا، سأكتفي بقسم من الفطيرة... فأنا لست جائعة تماماً».

«بالطبع، هل تودين الراحة في غرفتك لبعض الوقت؟».

نظرت اليه بحيرة عندما لمست السخرية في صوته. استغرب نظرتها وقال:

«وما الأمر؟».

هزت فانيسا رأسها بتعجب:

«لا شيء. اعتقدت انك...».

قاطعها بابتسامة لطيفة

«اسخر منك؟ كلا. لقد شحب لونك من جراء الصدمة. لا احد يلومك في ان تأخذي قسطاً من الراحة ولو لنصف ساعة».

«كلا، شكراً لك. سأشعر بتحسن كبير بعد ان آكل».

لكنها بدأت ترتجف، ولم تستطع ان تخفي الحقيقة.

وضع ذراعيه على مرفقيها ورفعها عن كرسيها قائلاً:

«من هنا. انتقلي الى الكرسي الآخر وانتظري معك على حسابك».

وكانت ركبتاها اضعف من ان ترفض اوامره.

احست بالدفء والشبع عندما تناولت العشاء الذي اصبح فاتراً. احضرت السيدة بانكس القهوة، ولما شاهدت فوضى المائدة طلبت منهما الانتقال الى ناحية اخرى حتى تنظف الطاولة وتعيد ترتيبها، ففعلا بدون تردد.

اشتد الألم في يد فانيسا التي اعتقدت انها استطاعت اخفاء الحقيقة عن الرجل الجالس قبالتها والذي لم يعد يظهر علامات العداء المعتادة تجاهها.

بعد ان انهيا الأكل، اتجه ناحية فانيسا وقال:

«هيا بنا، سنتناول القهوة في الصالون».

«أجل».

ترنحت قليلاً عندما وصلت الى الباب، وسمعت صرخة وكأنه قادم من البعيد... ثم احست بخفة يده على ذراعها.

همس في اذنها:

«لماذا انت عنيدة الى هذا الحد؟».

وبالرغم من انها فهمت ما يقصد الا انها قالت:

«لم افهم ما تعني بكلامك».

وعلى طول الطريق من غرفة الطعام الى الصالون كانت الجدران تتمايل امام ناظريها... وكم شعرت بالفرح لأن ذراعه القوية تسندها

قالت وهي تنظر اليه بعد ان اجلسها في المقعد:

«انني على ما يرام».

ولم تستطع اخفاء صرخة الألم. وبدون ان ينبس ببنت شفة استدار مغادراً

الصالون وتركها وحدها.

اعتقدت انها ازعجته، فرحل. قالت لنفسها: هذا ممتاز. لكنه عاد بعد اقل من دقيقة حاملاً فنجانين من القهوة. قال وهو يضع الفنجان على الطاولة القريبة منها:

«سآخذك الى الطبيب في القرية. اشربي قهوتك، ثم نتوجه اليه».

«لكن لا...».

«ارجوك بدون نقاش».

ثم اضاف بلطف:

«ستذهبين اليه حتى لو اضطررت لحملك الى السيارة».

نظرت الى فنجانها ثم تناولته بيدها. لا شك انه يعني كل كلمة قالها. وهي تعرف انه سينفذ وعيده. وابتسمت في سرها عندما تصورت نفسها «محمولة» بين ذراعيه الى السيارة.

«حسناً».

واغمضت عينيها بألم عندما رشفت جرعة كبيرة من القهوة الحارة.

«هل تريدين سيكارة؟»

«انا لا ادخن الا نادراً... شكراً لك».

سمعت صوت الولاعة، ثم شمت رائحة التبغ المحترق... لكنها لم تستطع ان تنظر اليه. ولسبب غير معروف اخذ قلبها يخفق بسرعة غير طبيعية، لدرجة اعتقدت معها انه سيسمع دقاته اذا ما رفعت عينيها اليه.

كان رأسها ساخناً، وتساءلت اذا كانت حرارتها قد ارتفعت بسرعة.

وضعت يدها على جبينها فأحست به مشتعلاً.

«هل انت على ما يرام؟»

بدا لها صوته وكأنه آت من مسافة بعيدة جداً، او كأنها على وشك الاصابة بالصمم... رفعت رأسها بسرعة لرؤيته وقد اقترب لتناول فنجان القهوة من يدها.

«لا بأس... لا بأس... فقط...».

لم تستطع ان تبلع ريقها. يا الله. ما الذي يحدث لها؟ بدت الغرفة لناظريها سابحة في ضباب رمادي كثيف، ورفعت يدها في محاولة يائسة للتمسك بأي شيء... ثم احست بيد تمسك يدها وسمعت صوتاً كأنه

من البعد البعيد... لكنها لم تسمع كلمة مما قاله.

أفاقت بعد فترة لتجد نفسها ممددة على المقعد المجاور. فتحت عينيها ببطء فوجدت كال واقفاً بالقرب منها. التفت صوبها. قال لها:

«لم يحدث شيء، أغمي عليك فقط. فلا تقلقي».

قالت قلقة:

«لا يحصل أن أغمي علي من قبل».

ابتسم برقة وهو يقول:

«لقد بدأت الآن. ارتاحي هنا لعدة دقائق ثم نذهب إلى الطبيب».

لا تريد أن تذهب في سيارته، ربما لا تعرف لماذا، ولا تستطيع أن تقول له ذلك أيضاً لأنه عندها يحملها بالقوة إذا رفضت. بدأت قوتها تعود إليها وصارت قادرة على التفكير بوضوح. بعد عدة دقائق تطلعت إليه قائلة:

«أنا جاهزة الآن».

«إذن سنذهب الآن. فكلما أسرعت بمعالجة الجرح، كان الشفاء أسرع».

انتظرت غلينيا في البهو الداخلي في حين توجه كال لإحضار السيارة إلى الباب الأمامي. سمعت صوت عجلات السيارة، فغادرت الباب بظن أنها لم تكن قد استعادت توازنها كاملاً.

بعد دقائق كانا معاً على الطريق، وكان كال يقود سيارته بسرعة معتدلة. سألته عندما اقتربا من الطريق الرئيسي:

«كم تبعد القرية عن البيت؟».

«حوالي ثمانية أميال. بعد قليل سنصل إليها. هل عاودك الألم؟».

رسمت على شفتيها ابتسامة شجاعة وقالت:

«ليس قوياً. لم يحصل أن أغمي علي من قبل. هذه أول مرة».

«ربما لم تعاني في الماضي مثلما عانيت اليوم. فالإغماء رد فعل طبيعي من الدماغ عند الإصابات».

«وهل حدث أن أغمي عليك من قبل؟».

ركز نظره عليها وكأنه يحاول استكشاف خلفيات السؤال. ثم ابتسم قائلاً:

«نعم، مرة واحدة... لكنني لن أخبرك عن تفاصيلها، ليس الآن في أي

حال».

استغربت غلينيا كيف أن الوقت قد زال بعيداً، ولكنها أحست بشيء غير طبيعي وهما في طريقهما إلى القرية. وعلمت من جلستها عندما تذكرت أنها في السيارة نفسها مع الرجل الذي تكرهه، وأنها أجبرت على مرافقته بالرغم من قرارها بعدم الإقدام على ذلك أبداً. ووجدت نفسها تنتظر شيئاً ما لا تعرف طبيعته.

وأخيراً سمعت ما كانت تتوقعه قال فجأة دون أن يرفع نظره عن الطريق.

«سيأتي صاحبنا صباح غد، وليس اليوم كما كان المخطط».

عرفت على الفور من المقصود بكلمة «صاحبنا». لكنها تساءلت كما لو أنها لم تفهم:

«من؟ السيد ماكلاين؟».

التفت إليها بطرف عينه وقال:

«ومن غيره؟ إنه صاحب العمل. اعتقدت أنك تريدين معرفة موعد حضوره!».

«صحيح... طبعاً».

خفق قلبها بسرعة أشد. كان هناك شيء ما في كلماته لم تستطع أن تعرف معناه. لذلك كان عليها أن تفكر ملياً قبل أن تتكلم، خاصة أن الألم أخذ يزداد أيضاً.

«لكنك قلت إنه سيعود اليوم؟».

«كان من المفروض أن يعود ظهراً، لكنه اضطر للتأخير. هل قلت لك إنك قابلته من قبل؟».

ما الذي عناه بسؤاله هذا؟ نظرت غلينيا إلى الأشجار المتناثرة خارج السيارة، ولم تلاحظ أنها كانت تضغط على معصمها المصاب. وفجأة عادت إلى الواقع وقالت:

«كلا لم أقابله. كيف يمكن ذلك وأنا جئت من لندن؟».

«أعرف أنك من لندن وأن اسمك غلينيا كوبلاند».

تجمدت غلينيا عندما رأته يبتسم وهو ينطق هذه الكلمات. لقد شدد كثيراً على كلمة كوبلاند، ولا شك أنه تعمد الأمر.

شعرت بخوف غامر استمرّ للحظات فقط، ثم تنفست بعمق. هل يمكن ان يكتشف الحقيقة؟ لا، فهذا مستحيل. لكنها تتمنى الآن لو انها لم تأت ابداً. كانت يدها تنتفض من الألم، لم تعد قادرة على التعامل مع هذا الرجل الرهيب خاصة في مثل وضعها الحالي... بل لم تعد قادرة حتى على ايجاد الأجوبة اللازمة.

ومع ذلك حاولت:

«نعم، واسمك هو كال غرين، اسم غريب حقاً».

«أصل اسمي الكامل كالوم غرين، ابي اسكتلندي وامي رومانية».

اثار هذا الاكتشاف اهتمام فانيسا رغم انشغالها بأمور اخرى ورأت فيه مناسبة لابعاد كال عن الموضوع الأساسي:

«أتقصد ان نصفك روماني؟».

هز رأسه علامة الايجاب. كان عليها ان تلاحظ ان نصفه اجنبي من خلال لونه البرونزي وشعره الأسود وعينيه الناريتين الخاطفتين اللتين استطاعتا ان تغوصا في اعماقها.

«لا»، لكنها لم تعرف لماذا قالت هذه الكلمة.

«لا ماذا؟».

«لا شيء، لا شيء».

وهربت من عينيه الى الأشجار في الخارج.

«وماذا عن والديك؟ الى اي بلد ينتميان؟».

كان مجرد سؤال تقليدي في مثل هذه المناسبة، لكن تصرفات كال جعلتها تشك في كل كلمة يقولها.

تنفست بعمق وقالت «امي......»، لكن القصة التي رددتها عشرات المرات في سرها تبخرت دفعة واحدة. تحول رأسها الى صفحة بيضاء خالية. رفعت يدها الى جبينها. لم يعد عندها سوى سلاح واحد:

«انا آسفة... ان يدي تؤلمني بشدة».

كان دفاعها حقيقياً، ولو بشكل جزئي. على الأقل سيعطيها بعض الوقت للتفكير. وحتى هو لن يجد ان ازعاجها الآن. ترى هل يفعل؟

ومع انه لم يصدقها، فقد تصرف بشكل مغاير تماماً. زاد سرعة السيارة فوراً وقال:

«سنكون هناك خلال دقيقة فقط».

واتكأت فانيسا رأسها على المقعد لتأخذ قسطاً من الراحة. هي تعرف انها هدنة مؤقتة... لكن كم من الوقت ستدوم؟

كان الطبيب من النوع الصامت، وعندما خرجت فانيسا من عيادته كان الألم قد خف بشكل كبير. كتب لها وصفة طبية واعطاها بضع حبات من الدواء وامرها ان ترتاح لعدة ايام.

في القاعة الخارجية جلس كال على احد المقاعد الخشبية ينتظر انتهاء الطبيب. نهض واقفاً عندما برزت فانيسا وسألها:

«هل تشعرين بأنك أفضل؟».

«أجل. شكراً لك. قال لي انك فعلت المناسب عندما سكبت الماء البارد على الحرق، فهذا سيمنع ظهور ندوب دائمة. على كل يجب ان ارتاح لعدة ايام ثم تعود يدي الى طبيعتها».

«اذن يجب ان نجد لك وظيفة اخرى غير الكتابة؟».

قال هذه العبارة مازحاً وهو يفتح لها الباب. نظرت اليه بحدة:

«لا ابداً، فانا اكتب باليد اليسرى. لقد اعطاني الطبيب وصفة، فهل هناك صيدلية قريبة؟».

«في الطرف الآخر من القرية. سأحضر السيارة».

«الا نستطيع ان نسير اليها؟».

«هل تشعرين بقوة كافية للسير؟».

التفتت فانيسا اليه بسرعة. هل كانت هناك تلك النغمة الساخرة ام ان خيالها يزيّن لها الأمور كالعادة؟

«اعتقد ان السير في مثل هذا النهار الجميل سيفيدني».

وكانت على حق. فالشمس تطل وسط سماء صافية تماماً. الى يسارها بحيرة واسعة، والى اليمين صف لا ينتهي من البيوت الريفية الصغيرة وسط الحدائق.

«حسناً، هيا بنا».

سارا معاً فوق الشارع غير المعبد في السلم كبير منه، ولم تزعجها حركة السير. حاولت فانيسا الانشغال عن الغريب الذي يسير الى جانبها بتأمل الريف الممتد حتى حدود التلال البعيدة. كانت المنطقة هادئة بحيث كنت

فانيسا ان تقضي عمرها كله هنا.

«انه منظر ساحر، أليس كذلك؟».

فوجئت بكلامه، وتساءلت:

«أي منظر».

«هذه المنطقة. الريف كله. لقد لاحظت التأثير الذي تركه عليك لأول مرة».

«اجل. انه رائع».

لكنها شعرت بالقلق. لماذا يتصرف بهذا الشكل الماكر؟ لقد استطاع فعلا ان يقرأ افكارها. لماذا يجب ان يكون هنا الآن... هنا في دينستون هاوس؟ ليس بالامكان ان تحصل على جواب كاف، لكن عليها ان تكون مجارية للحكاية معه. وحتى تسترجع شجاعتها المهزوزة قالت شيئا اراد [illegible] تقوله قبل دقائق:

«اشكرك جداً لانك احضرتني الى الطبيب. لقد كنت على الصواب».

«لا بأس على الاطلاق».

[illegible]

تكن قادرة على توقع الأمور.

انتظر كال حتى وصل الى منعطف الطريق المؤدي الى البيت. قريباً في النقطة التي اشار عندها الى فانيسا لتتوقف مساء امس، وتوقف فجأة فالتفتت فانيسا اليه مذهولة.

«اعتقد انك ستستمتعين بالمشهد من هنا. فالمرتفع يؤمن رؤية اوسع».

وعلى الفور شكت فانيسا بنواياه، خاصة عندما تذكرت الاسئلة التي طرحها قبل ان توقفه بصحبة الألم في عنقها. الآن لا تستطيع ان تعمل شيئاً. انتظرت حتى خرج كال من السيارة واستدار ناحيتها وفتح الباب لها. فخرجت. في الاقل لا وجود للعداء في تصرفاته، ولكن الشك يسيطر عليها. هناك طريقة واحدة للتصرف: الرزانة المطلقة.

«شكراً لك».

ابتسمت وهي تغادر السيارة فكانت الابتسامة نفسها التي كانت تجعل السيد موريتون يقع في حبها.

رد كال ابتسامتها بأحسن منها. كانت عيناه صافيتين ووديعتين. قال بهدوء وثقة:

«هذا الفصل. ليس من المناسب ان تمضي الوقت كله في الشجار، أليس كذلك؟».

وافقت فانيسا:

«طبعاً».

ثم التفتت حولها وقالت: «اين...؟».

اشار مقاطعاً:

«هناك. اذا صعدنا التلة سنشاهد اروع مشهد في كل اسكتلندا، على الاقل حسب رأيي. هل يمكنك الصعود؟».

كان السؤال بلهجة قلقة وكأنه فعلا يهتم بها... وقد بدأت فانيسا تعتقد بانه قلق عليها حقيقة.

«اجل». [illegible]

[illegible]

وجهها علامات الاعجاب العميق.

قالت بانتعاش:

«انه رائع... انه رائع جداً. أليس كذلك؟».

كانت التلال تمتد امامها في كل اتجاه حتى شاطئ البحر، واللون الاخضر الغامق يغطي كل شيء... وفي الافق البعيد وقفت صخور جبارة امام زحف الموج الذي كان يرتد عنها تاركاً في الجو رذاذه الأبيض الطائل.

ونظر كال اليها وابتسم مجدداً، وتساءلت لماذا يبذل كل هذا الجهد. فجأة قال لها:

«انا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كوليتز». ثم اضاف بهدوء:

«ما هو اسمك الحقيقي؟».

٤ - عشاء مع الغريمة

صعقت قاتيا عند سماعها كلام كال، وأحست بالضياع لثوان حسبت أنها أنها ساعات... لكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة وتذكرت النصيحة الذهبية: الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع.

استدارت ببطء نحوه وقد زال الخوف من نفسها. فهي لن تترك هذا الرجل يفسد عليها المخططات التي أعدت لها منذ مدة. بدا عليها الهدوء التام، كيف لا وهي تملك أسلحة لم تستعملها بعد ولا تعتقد انه يستطيع مواجهتها. أنوثتها هي أحد أهم الأسلحة. ويمكنها دائماً أن تستعمل سحرها النسائي حتى النهاية. ولكن الوقت لم يحن بعد. الآن عليها أن تستفز مشاعر الغضب في نفسها رداً على اتهاماته الباطلة. فهذا هو الموقف الصحيح لو كانت فعلاً بريئة من تلك الاتهامات.

وخرجت الكلمات قوية وحادة:

«عفواً، ماذا قلت؟ هل جننت أم أنك مجرد إنسان وقح؟»

وقف كال قبالتها واضعاً يديه في جيبي سرواله وقال:

«حركة جيدة. أداء الغضب يناسبك تماماً»

ارتفعت درجة التوتر عند قاتيا، ولكنها جاهدت للحفاظ على هدوئها. من الأفضل ألا تفقد أعصابها. وعليها أن تستمر في التمثيل كي لا تقول شيئاً تندم عليه فيما بعد، خاصة أنها أرادت مواجهة هذا الرجل.

كان كال يراقبها وقد تضرج خداها وأخذت تتنفس بسرعة، لكنه لم يبد أية مشاعر، وظلت ملامح وجهه القوية الصلبة ساكنة وهادئة.

«لقد أطلقت اتهامات سخيفة، فهل يمكن أن توضح كلامك؟»

بدت ملامح ابتسامة على وجهه:

«طبعاً، أنت تذكرين تفاصيل لقائنا الأول؟»

«وهل يمكن أن أنساه؟ أنت تشير أساساً إلى الطريقة الفظة التي سألتني فيها عن اسمي»

«هل كنت فظاً؟ حسناً، ربما... لكنني كنت غاضباً منك»

قاطعته بصوت ناعم:

«يظهر أنك تريد أن تخبرني قصة حياتك! فاذا كنت...»

«لا، لن أخبرك قصة حياتي. أنت التي سألت. لم تستطيعي حتى أن تذكري اسمك»

«لقد ذكرت لك السبب. فأنا لا أخبر الغرباء عن...»

«دعك من هذا. أي غريب أنا؟ لقد أنقذتك لتوي من موقف صعب. فلماذا يجب أن تخافي مني؟»

«كنت متوترة جداً. وسأكون ممتنة لو انك سمحت لي بإنهاء جملة واحدة أقولها»

واندفعت في دورها الجديد بما أعطاها دفعة كبيرة من الثقة بالنفس، فقالت: «إنني لم أرد أن أعطيك اسمي الحقيقي. هذا كل ما عندي من دفاع. أنت أسوأ أنواع الناس، لأنك تختار الأوقات غير المناسبة حتى تطرح اتهاماتك السخيفة. هذا طبيعي منك، وأنا أجد أن ملاحظاتك مهينة ولن أبقى هنا دقيقة واحدة، ويمكنك أن تستمتع بالمشهد وحدك»

ثم استدارت وتركته خلفها مصممة على الرجوع إلى السيارة، بل حتى السير إلى البيت إذا رفض تلبية رغبتها. المهم أن تحافظ على مظهر الثقة، حتى لو كانت ترتعد داخلياً. فما دامت قادرة على اخفاء الأمر، فإن عندها فرصة كبيرة لربح المعركة. وهذه كانت معركة بالفعل، بين شخصيته الصلبة الاستفزازية وبين موقفها دفاعاً عما تعرفه ويجهله هو.

لحقها كال على الفور. لم ينتظر أبداً، بل قطع المسافة بخطوات عريضة ثم أمسك بذراعها وجمدها في مكانها. ولم يكن أمامها إلا الوقوف. استدارت إليه وقد امتلأت بالغضب الحقيقي هذه المرة.

«أبعد يديك عني أيها الخبيث»

ضاقت حدقتا عينيه وهو يقول:

«وان لك مزاجاً صعباً للغاية».
«معك الحق؟ اجل ... انت محق».
فجأة أطلق ضحكة عالية هازئة. نزعت فانيسا ذراعها من قبضة يده بأقصى ما تملك من قوة، وصرخت:
«انت حقير ... حقير ... دعني لوحدي».
وانفجرت باكية رغماً عن ارادتها. فأسرعت تركض نحو السيارة والدموع تحجب عنها الرؤية الواضحة. كان كل شيء يسبح في ضباب معتم وكأنها في حلم. انتظرت في السيارة حتى يأتي كال ويسحبها الى الخارج. لم تعد تهتم بشيء. انه انسان حقير.
أحست به في المقعد المجاور، دون ان تراه بسبب دموعها. وعندها قال:
«حسناً جداً. لقد اوضحت ما تريدين. يمكنك ايقاف هذا النحيب».
قطعت الفاصلة بكلامها. تلمست منديل ورقي وقالت:
«لقد اجبرتني ...».
وأخذت تبحث عن منديل آخر في حقيبة يدها.
«هاك منديلي».
فأخذته ومسحت به دموعها وانفها. وفكرت في نفسها:
«كم اكرهه الآن».
وجاهدت كي لا تطلق البصقة في وجهه.
سمعته يدير آلة التسجيل، فانسابت موسيقى خفيفة في السيارة. خفف كال الصوت قليلاً وقال لها وقد التقت عيناه عينيها الدامعتين:
«حسناً أيتها القطة المتوحشة. خففي من روعك الآن».
وتساءلت في نفسها عن رد فعله فيما لو ضربته بقوة. وكانت الرغبة عميقة بحيث اضطرت للتشبث بحقيبة يدها كي تمنع نفسها من الضرب. ولأنه لم يتوقع جواباً منها، أدار محرك السيارة وانطلق بسرعة فائقة عائداً الى دينستون هاوس. واستقرت فانيسا في مقعدها ويداها تضغطان من الغليان والخيبة. انها منهكة للغاية وتريد بعض الراحة بالحاح.
وعندما استلقت فانيسا في سريرها ذلك المساء، وقبل الاستعداد لتناول العشاء، عادت الى ذاكرتها احداث اليوم بشكل مؤلم وواضح. لقد

استطاعت منع نفسها من التفكير بعد عودتها الى دينستون هاوس، اذ رفضت اقتراح كال بأخذ قسط من الراحة وتركته فور دخولها البيت وأمضت طيلة بعد الظهر في المكتبة. وبحلول الساعة الرابعة احضر لها فنجان القهوة بنفسه وسألها اذا كانت تشعر بالألم، ثم تركها. كانت تعابير وجهه آنذاك هادئة وخالية من القسوة التي ابداها عند التلة.
لم تعد قادرة على التجاهل الآن، فقد واجهتها افكارها دفعة واحدة وهي مستلقية في سريرها. من الواضح انه يشك فيها. لكن بأية طريقة؟ لقد قال - وجاهدت لتنظيم افكارها المشوشة - ماذا قال تحديداً؟ «وانا اعرف ان اسمك ليس فانيسا كولنز... فما هو اذن؟» تنفست بعمق وهي تسترجع كلماته حرفياً، وكذلك تعابير وجهه التي رافقت تلك الكلمات. كان يتكلم بتهكم واضح، وفي عينيه نظرة تؤكد انه يعرف كل شيء... بحيث تزرع الرعب في قلبها.
واتضحت لها الأمور بمنطق. ما قاله لا يعني انه اكتشف الحقيقة فعلاً. يمكن ان يعتقد انها امرأة متزوجة وهاربة من زوجها. والأرجح انه يفكر هكذا. نظرت الى يدها، فلم تجد اثراً للخط الأبيض الذي يتركه خاتم الزواج. وفجأة نهضت من السرير وتوجهت الى علبة مجوهراتها الموضوعة على طاولة الزينة وقلبتها بحثاً عن خاتم ذهبي كانت تعتز به دائماً. ولما وجدته وضعته في اصبعها وابعدته عن وجهها لتتأمله ملياً. هذا الخاتم سيفي بالغرض وعليها ان ترتديه دائماً منذ الآن، وعندها لن يلاحظ غياب العلامات الصغيرة. وقبل ان تستعد للعشاء انتزعت الخاتم من اصبعها ودخلت لتغسل يديها.
تزينت جيداً وارتدت زياً رمادياً فضفاضاً وطويلاً يبرز قوامها الرشيق ويجعلها تبدو اكثر اناقة وسحراً. حسبما يقول لها كال سيثير الموضوع الليلة وقبل عودة جدها غداً، اذا كان فعلاً سيواصل تحقيقاته عن شخصيتها. والأرجح ان يحدث ذلك بعد العشاء. فاذا ما بدت بأحسن حالاتها، فستحصل على دفعة كبيرة من الثقة بالنفس هي بأمس الحاجة اليها.
وقفت امام المرآة لتضع اللمسة الأخيرة من ظلال العيون واحمر الشفاه. انها مبارزة احتمال، ولكن جمالها لم يكن مصدر سعادة دائماً، بل كثيراً ما

سبب هذا التشاكل بحيث وجدت نفسها تحسد صديقتها ذوات الجمال العادي، فهن لا يواجهن مصاعب كثيرة، ومع ذلك لا يقدرن هذا الوضع. تنهدت مطولاً وهي تضيع أمر التفكير. إنها مستعدة للعشاء الآن.

ألقت نظرة أخيرة على الغرفة ثم أطفأت الأنوار ونزلت إلى غرفة الطعام. وجدت كال في الغرفة مع أناس آخرين هذه المرة. استعادت رباطة جأشها بسرعة بعد صدمة المشاهدة الأولى. على الأقل لن يقدم على خلق المشاكل أمام الناس. كانت هناك امرأتان، أم وابنتها على الأرجح، تجلسان إلى الطاولة التي أعدت لأربعة أشخاص. تشاهدهما كال فيعض لأوامرها.

«ها قد وصلت أخيراً».

قال العبارة وكأنه انتظرها طويلاً. ثم توجه نحوها ليرافقها إلى المائدة. تنفست فاليسيا بعمق لأن شيئاً ما أشعرها بوجود جو عدائي في الغرفة موجه ضدها شخصياً.

«السيدة ماكري، هيلين. هذه فاليسيا كولينز. وهاتان صديقتان للسيد ماكلين».

تقدمت فاليسيا نحوهما ويد كال على ذراعها. لم يتردد عندما نطق اسمها، بل ذكر اسمها الأول وكأنه اعتاد عليه. مدت يدها اليسرى للسلام لأن اليمنى ما تزال متضمنة. فأمسكتها السيدة ماكري مليّاً بعينيها الزرقاوين الخاويتين وسط وجه جميل جذاب.

«كيف حالك يا آنسة كولينز، لقد تأسفنا للإصابة التي لحقتك اليوم. هل تشعرين بتحسن الآن؟».

كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً من الساتان السميك بلون بنفسجي فاقع، وتساءلت فاليسيا في نفسها إذا كانت هذه السيدة تعرف أن اللون لا يناسبها أبداً. أما الابنة فقد كانت مختلفة تماماً. وعندما التفتت فاليسيا إليها أدركت على الفور من أين جاء جو العداء ضدها. لم تكن هيلين ماكري مجرد شابة جميلة، فتفاصيل وجهها الأشقر كانت كاملة ابتداء من العينين الناعستين تحت رموش كثيفة حتى الشفتين المكتنزتين الحمراوين. وقد تركت شعرها الأشقر الطويل منسدلاً على كتفيها وعقدته بربطة حريرية زادتها رقة وشباباً. كما ساهم ثوبها الزهري المتموج في إبراز هذه الصورة.

ابتسمت فاليسيا .. وكأن لسان حالها يقول: «حسناً، أنا لا أحبك».

قالت بعذوبة وحياء:

«مرحباً، لقد أخبرنا كال... » ونظرت إلى الرجل الطويل الواقف إلى جانبها: «... عن الحادث الصغير الذي وقع لك. إنه حادث مؤسف».

لكن المعنى وراء هذه الكلمات كان واضحاً بالنسبة لفاليسيا التي بدأت تتمنى لو أنها بقيت في غرفتها. المعنى يقول بوضوح: «إن كال لي أنا، فراقبي تحركاتك. وأنا مسرورة جداً للحروق التي أصابت يدك».

ردت فاليسيا بابتسامة مصطنعة:

«شكراً لك».

لقد اعتادت على مثل هذه المواقف العدائية، أما إذا اعتقدت الشابة الشقراء أن فاليسيا تريد الاستيلاء على كال فهي مخطئة تماماً. على الأقل، كان تصميم على مستوى ما، وهو أفضل من هذه الشقراء المتحرقة التي تبدو أكبر من فاليسيا بحوالي السنة، والتي بدت، شكلها من الثراء الفاحش الذي يحمل الثقة الشائع فيها إلى بعض الناس.

توجه كال إلى خزانة الحائط ثم التفت نحو فاليسيا وسألها:

«ماذا تشربين؟».

أجابت قائلة:

«عصير التوت وحده».

إنه لو يظل لطيفاً كما هو الآن، فالحياة تكون رائعة عندها. ولن تجد فاليسيا ما تشكو منه.

دخلت السيدة بالكس حاملة طبق العشاء. وأخذ الجميع مقاعدهم في ترتيب معد لهم. ثم أدركت فاليسيا أن السيد ماكلين يجب أن يكون هنا على العشاء وإلا فكيف تفسر حضور هاتين الضيفتين. وقد تأكد ظنها من خلال الحديث الذي جرى على العشاء بين كال والسيدتين في حين ظلت فاليسيا مستمعة. فقد قررت بينها وبين نفسها أن تتصرف بهدوء وأن لا تتكلم إلا إذا خاطبها أحد الحضور. فهي غريبة هنا ومجرد موظفة، والآخرون كما هو واضح يعرفون بعضهم جيداً. لو أنهم يعرفون الحقيقة، لذابت الابتسامة عن شفتي هيلين.

أمسكت فاليسيا بلسانها وتناولت حساءها بحذر بالغ متذكرة ما

حدثت عند الظهر . . . وتطلعت الى كال فوجدته يحدق فيها.
اتسعت عيناها تعجباً، ترى ما هذا التعبير على وجهه؟ خيل اليها انها ترى معنى محيراً، لكن المعنى اختفى عندما قال:
«الحساء ليس ساخناً كالمرة السابقة؟».
اغتصبت ابتسامة وقالت:
«كلا».
كان يعمل جاهداً كي يلطف الجو. ومن خلال نظراته الى الفتاة الاخرى لم يكن الأمر صعباً. من الواضح ان هناك شيئاً ما بينهما بحاجة النظرات المتألمة التي كانت تلقيها هيلز باتجاه كال، والبسمات التي حرصت على ان تلحظها فانيسا دائماً. اما كال فقد لعب دور المضيف بنجاح في غياب السيد ماكلين. وكان يبدو على السيدة الكبيرة اعجابها بكلام كال بحيث طغت ضحكاتها على العشاء كله. وتساءلت فانيسا عن الوقت المناسب الذي يمكنها فيه ان تنسحب الى غرفتها. فهي متأكدة من انهم لا يريدونها، كما انها لا تريد ان تبقى معهم ايضاً. ولكن تبين ان الهرب مستحيل، فما ان انتهوا من تناول الجبنة والبسكويت حتى اقترح كال ان يتوجهوا الى الصالة لتناول القهوة. فهمهمت السيدة ماكري موافقة، في حين ابتسمت هيلز لكال بعذوبة بالغة . . . اما فانيسا فقد قالت بهدوء:
«اظنكم ستعذروني لعدم تمكني من البقاء»!
ضاقت عينا كال وهو يسألها:
«ولكنك ستتناولين القهوة معنا؟».
«لا شكراً. العشاء كان ممتازاً . . . لكنني لا استطيع السهر».
ابتسم بهدوء وقال:
«يجب ان لا تغضب السيدة بالكس. فهي لن تقبل بأن تجد فنجان قهوة غير مشروب على الطاولة، باعتبار انها فخورة جداً بالقهوة التي تصنعها».
شعرت فانيسا برغبة طفولية في ان ترد عليه قائلة: يمكنك ان تشرب الفنجانين بنفسك. لكنها لم تفعل بالطبع. واكتفت بالقول:
«هل يمكن ان آخذه الى غرفتي اذاً؟».
تدخلت هيلز بصوت ناعم قائلة:
«بالطبع يا كال. فلا شك ان فانيسا متعبة بعد حادث اليوم».

والتفتت الى فانيسا وكأنها تقول: حظك سيء . . . على كل حال نحن لا نريدك ايضاً.
استغربت فانيسا، وهم يسيرون في الممر المؤدي الى الصالون، كيف ان كال فقط معجباً بها هو ناعم جداً مع هيلز. وقالت لنفسها:
يكفي ان ترف تلك المرأة جفنيها حتى يسرع كال ليركع بين يديها. على كل هما متناسبان لبعضهما . . . واعتقدت ان هذه النتيجة ستعزيها قليلاً، ولكن هذا لم يحصل.
وعندما دخلت السيدتان الى الصالون تمهل كال ليفسح الطريق امام فانيسا . . . لكنها توقفت قليلاً. استدارت نحوه وقالت:
«السيدة ماكري على حق. يدي تؤلمني. وسأكون ممتنة لو سمحت لي بالانصراف واوي الى فراشي. وانا متأسفة على فنجان القهوة».
رأت عضلات فكه تتقلص وتشتد، فأدركت انه غضب من شيء ما. اعطاها هذا الاحساس بعض الارتياح ومكنها من ان تضيف بسرعة:
«من المؤكد ان وجودي غير مرغوب فيه في هذه السهرة . . . كما ان التلفاز سيعرض فيلماً جيداً».
وبدون ان تنتظر جوابه دخلت الى الصالون وتوجهت حيث جلست السيدتان وقالت:
«ارجو المعذرة . . . تصبحون بخير».
ولم تنظر الى كال وهي تغادر الغرفة، لكنها شعرت بأنه على وشك ان يلحق بها ويرافقها مثلما فعل فوق التلة بعد الظهر.
اغلقت باب غرفتها والقت بجسمها عليه وتنهدت بعمق. انتهى كل شيء. وفكرت بارتياح: اذا ما التقيت هيلز العزيزة مرة اخرى فلن ازعج نفسي بمضايقتها. توجهت نحو النافذة واسدلت الستائر المخملية. ثم ادارت جهاز التلفاز وغرقت في الكرسي الوثير الذي يواجهه. شعرت بالندم لأنها لم تنتظر قليلاً لتحضر فنجان القهوة معها. ولكنها لن تنزل لاحضاره بل تفضل ان تشرب الماء بدلاً من القهوة.
ملأت موسيقى البرنامج الكوميدي الذي يعرضه التلفاز جو الغرفة في حين انهمكت فانيسا في فك سحاب فستانها . . . عندما ارتدت الفستان لم تجد صعوبة في رفع السحاب. لكنها اضطرت الآن لاستعمال يديها

الاثنين لأن السحاب تمزق عند الرقبة تماماً. فكرت للوهلة الأولى بأن تتسلل دون أن يراها أحد إلى المطبخ وتسأل السيدة بانكس أن تساعدها. استخفت هذه الفكرة وهي تبتسم لسخافتها. الأفضل أن تبحث في الغرفة عن شيء يساعدها مثل مبرد أظافر أو مقص. وأخذت تقلب كل الاحتمالات المعقولة وغير المعقولة. أسهل احتمال كان أن تنزل وتسأل السيدة ماكري أن تساعدها... استخفته عندما فكرت كيف ستكون ردة فعل عمها. فجأة سمعت قرعاً على الباب، ودون أن تلتفت قالت:

«ادخل».

لا بد أن كان قد طلب من السيدة بانكس أن تحضر لها القهوة. لكن الصدمة كانت كبيرة عندما التفتت من فوق كتفها لتجد كال نفسه حاملاً لها فنجان القهوة ومعه بعض الشوكولاته:

«آه، هذا أنت؟».

وضع الصينية التي كان يحملها على الطاولة المجاورة للباب.

«من توقعت؟ لوري؟» سألها بجفاء وقد اسود وجهه، وتابع: «ماذا تحاولين ازاحة هذا الكرسي؟».

«حتى استطيع مشاهدة المنظر براحة». ثم تذكرت ضرورة أن تشكره فقالت: «اشكرك لأنك احضرت لي القهوة».

اجابها مضيفاً:

«... والشوكولاته بالنعناع أيضاً».

ثم اقترب من الكرسي وحمله على الرغم من ضخامته وثقله وقال لها: «قولي لي اين تريدينه؟».

«آه هنا... إلى اليمين قليلاً... هكذا، شكراً لك... لقد، لقد احضرته السيدة بانكس!».

رفع احد حاجبيه وقال:

«صحيح؟ انا متأسف لأني خيبت ظنك».

بلعت ريقها وهي تقول وكأنت تريده عليها أن تتحرك الآن وإلا فات الأوان:

«لم استطع ان افك سحاب فستاني واردت ان...».

ترى لماذا لم يخاطبها كعادته؟ يا له من رجل غريب. اما هو فقد ظل

واقفاً يراقبها بهدوء بانتظار انتهاء كلامها. وتابعت تقول:

«كنت سأسأل السيدة بانكس ان...».

من الأكيد انه سيرفض مساعدتها. واخيراً ابتلعت كبرياءها وقالت:

«ارجوك، هل لك ان تساعدني في حل عقدة سحاب فستاني بالقرب من العنق؟».

«بالطبع. لم اعرض المساعدة اولاً لئلا يساء فهمي».

ادارت ظهرها وعبر في طريقه اليها. خيم جو من الصمت على الاثنين، فاحست قلبها بأنه يخفق والأحراج الذي اصابها من جراء طلبها. كانت يداه باردتين وسريعتين.. حل عقدة السحاب من الأعلى، تردد قليلاً، ثم كمل سحبه إلى الأسفل. احست بنفسه يلفح رقبتها وهو يقول:

«هل يكفي هذا؟».

«انت... ...» امتدت يدها إلى الخلف لتحس السحاب، فالتقت كف لمسات قليلة كانت كافية لبث تيار كهربائي في جسدها.

«إلى الأسفل قليلاً، ارجوك».

يا الله، ماذا حل بها؟ فقد كانت ترتجف مثل ورقة شجر في مهب الريح. ابتهلت في داخلها:

«ارجوك ارحل الآن».

واحست بالسحاب ينحل اكثر.

«هذا افضل. شكراً لك».

واستدارت بسرعة خوفاً من ان يحاول ان يعيده اكثر مع انها تعرف انه لن يفعل، فاصطدمت به. اسرع كال بوضع يديه حول كتفيها ليمنعها من السقوط، ولحظات وقفا صامتين واحساس بالتوتر يهيمن عليهما لادراكهما بأن شيئاً غريباً يحدث في الغرفة.

«حسناً، يجب ان اذهب الآن لأنضم إلى الضيوف».

حطم كلامه الصمت بينهما فاستدارت فاتبعها بعيداً في حين سار كال نحو الباب مغادراً الغرفة. فتح الباب، تردد قليلاً قبل ان يقول:

«تصبحين على خير».

انتزعت وسادة السرير وصفقت الباب خلفه. حين اليها سماع ضحكته في الممر. توقفت في مكانها وصدرها يغلي بالغضب. لكنها لم تكن

خائفة تماماً، فالشعور الذي ملأ صدرها كان جديداً عليها . . . انه خوف ووحشة في آن واحد.

اعتقدت فاليسا انها ستأوي الى فراشها باكراً. وبعد ان خلعت ملابسها جلست في المقعد الوثير تحتسي قهوتها مع انواع الشوكولاته باستمتاع. احست بالتعب فقررت ان تنام فور انتهاء الفيلم التلفزيوني. ومع مضي الوقت وجدت نفسها قلقة وغير قادرة على النوم. كانت تسمع صدى اصوات تنبعث من الطابق السفلي بدون ان تعرف ما هي. ترى ماذا يعملون هناك؟ يتحدثون؟ يلعبون الورق؟ وعندما انتهى الفيلم الذي كان مملاً وسخيفاً مفسحاً المجال للاعلانات، قامت فاليسا نحو النافذة وازاحت الستارة. امام الباب وقفت سيارة «رولز رويس» فخمة. من الذي يملكها؟ الأم ام الابنة؟ على كل حال هما ما زالتا في البيت.

وفي لحظة غضب ارخت فاليسا الستائر بعنف واطفأت التلفاز وتوجهت الى السرير. استلقت في فراشها من دون ان تستطيع النوم. وازداد الألم تدريجياً في رأسها بحيث لم تعد قادرة على الاحتمال فتوجهت الى الحمام وتناولت حبتين من الدواء الذي اعطاها اياه الطبيب. وبينما هي عائدة الى سريرها سمعت همهمات تصدر من أسفل النافذة فتوجهت اليها فوراً. رفعت الستارة بحذر شديد ونظرت الى الباحة التي اضيئت فجأة فانعكس النور على لون الرولز رويس الذهبي، وهناك وقف ثلاثة اشخاص: السيدة ماكري وهيلز وكال. كانوا يتحدثون، واحدهم يضحك عالياً. شدت هيلز ذراع كال الذي انحنى نحوها كأنه يريد سماع كلمات خاصة منها . . .

ومع ان فاليسا ارادت ان تبتعد عن النافذة الا انها لم تستطع.

واخيراً لوحت السيدة ماكري بيدها، ففتح كال باب السيارة لتلتقي بها، ودخلت هيلز خلفها بعد ان تبادلت عناقاً قصيراً مع كال. اغلق باب السيارة، فحركت هيلز الشباك وقالت شيئاً ما لكال الذي رد بضحكة طويلة. الن هناك سائق خاص لقيادة السيارة؟ ولماذا لا؟ راقبت فاليسا السيارة وهي تتحرك باتجاه الباب الخارجي. وكانت على وشك ان ترخي الستارة، لكنها ترددت قليلاً لتتأمل كال الذي انعكس ظله على الباحة الامامية. كيف اعتقدت انه ليس قوياً؟ انه يبدو الآن كحيوان شديد القوة مليء بحيوية لا يمكن تكرارها ابداً. وفجأة استدار والتفت الى اعلى . . .

مباشرة باتجاه فاليسا. نظر اليها للحظات قبل ان يبتسم ويختفي داخل البيت. قفز قلب فاليسا بشدة وهي تبتعد عن النافذة. لقد شاهدها الآن، فماذا يفكر في ذلك؟

اعتقدت انها لن تنام بسرعة، لكن حبتي الدواء اعطتا مفعولها الفوري. وغرقت في كوابيس مزعجة دارت كلها حول وجهين، احدهما لرجل عجوز لم تره بعد والآخر لشاب قوي الملامح اصبح مألوفاً لديها تماماً.

استيقظت باكراً، لكنها ظلت مستلقية تسترجع احداث اليوم الماضي. وفجأة اعترتها رعشة باردة فانتصبت جالسة. لقد تذكرت انها ستلتقي جدها بعد ساعتين تقريباً. لن تستطيع ان تتراجع الآن فقد فات الأوان. ودهمها شعور آخر بالانزعاج عندما فكرت في كال. فهذا الرجل سيراقبها بدقة، اذ انه يشك فيها بدون ان يعرف لماذا. لعله حدس وجود شيء غير طبيعي في تصرفاتها، ولذلك عليها ان تتصرف باعصاب باردة وهدوء تام. فهل تستطيع ان تنجح في هذه المهمة؟ حاولت ان ترخي اعصابها وهي تغسل وجهها وترتدي ملابسها. انها تحتاج لكل ما تقدر من ارادة، خاصة خلال اليومين القبلين، وستراقب كال عن كثب بحرص بالغ في هذه الفترة. عليها ان تتناول الافطار بسرعة وتبدأ عملها في المكتبة لأن الكتب ستساعدها على التفكير السليم بكل وضوح. كانت تتوقع ان تكره المكتبة خاصة انها قبلت الوظيفة كوسيلة لتنفيذ مآربها. لكن هذا لم يحدث، لقد وجدت متعة فائقة في التعامل مع الكتب الانيقة وقراءة عناوينها والرجوع الى الماضي كما كان، اذ ليس افضل من كتاب يعيد احياء الماضي بلحظات. كما كانت هناك مئات الصحف القديمة التي دفنها الوري في احدى الزوايا، وبعضها يعود الى اوائل القرن الثامن عشر. وقد تشوقت فاليسا للعمل فيها وترتيبها حسب التسلسل الزمني. ولا شك ان هذه المجموعات قيمة جداً، لكن هل يعرف جدها قيمتها الحقيقية؟ هذا ما ستعرفه قريباً.

وبينما هي تنزل السلم متجهة باتجاه الطابق السفلي سمعت باباً يفتح، فتوقفت. هل هذا باب غرفته؟ لقد سمعت صوت محرك سيارة وهي تستحم، لكنها لم تشاهد شيئاً امام المنزل عندما نظرت من النافذة. وفجأة

اعتراها شعور بالضياع والارتباك.

«صباح الخير»

داهمها الصوت بحدة وهي تنزل الدرجات الأخيرة وتلتقي مواجهة مع الرجل الآتي من الصالون. ارتاحت قليلاً عندما رأت انه كال. كان يرتدي صدرية صوفية بيضاء فوق قميص ابيض ايضاً. بدا لها جذاباً اكثر من ذي قبل، وعرفت على الفور انها اعجبت حتى بهذا المخلوق القوي. ابتسم لها، فأعادها فوراً الى حالة الترقب والاستنفار.

«اعتقد ان السيد ماكلين لن يكون معنا على الفطور، لكنك سترينه لاحقاً»

«ألم يحضر بعد؟»

«أجل، لقد حضر»

بدت عيناه الخضراوان بلون رمادي غامق من تأثير الضوء القوي. لكن ليزا كانت مهتمة اكثر بالنظرة الجامدة التي اطلقها نحوها، وتذكرت انه رآها مسبقاً امس وهي واقفة على النافذة. نزلت الدرجة الأخيرة وسارت باتجاه غرفة الطعام. ولأن ساقيه كانتا طويلتين فقد امهل في سيره كي يبقى في موازاتها.

«كيف حال يدك اليوم؟ هل تشعرين بتحسن؟»

«نعم شكراً لك»

«هل طلب منك الدكتور ايفنس مراجعته مرة اخرى؟»

خففت سيرها ونظرت اليه. كانا قد وصلا تقريباً الى باب غرفة الطعام. قالت:

«طلب مني ان اغير الضمادة يومياً، وان ابلغه على الفور بأي طارىء. ولا اتوقع حدوث التهابات لأن جراحي تلتئم بسرعة»

«آه، وهل تستطيعين لف الضمادة؟ ألا تريدين اية مساعدة؟»

«لا، شكراً»

وابتعدت عنه. اذ بدا لها لحظة وكأنه سيمسك ذراعها، وهي لا تريد ان يمسها ابداً.

لم تكن السيدة ماكلين في احسن حالاتها في تحضير الفطور. لعل ذلك بسبب عودة صاحب البيت، فربما هي مهتمة بإعداد فطور خاص له ليتناوله

في غرفته. وتساءلت ليزا عن المكان الذي كان فيه جيفا. من المحتمل انه كان مسافراً. انها لا تعرف طبيعة الأعمال التي يقوم بها، خاصة انه ابقاها تكتم جداً في هذه الناحية.

«هل انت قادرة على تقسيم قطعة الجبنة؟»

فاجأها سؤاله.

«ماذا؟ آه، أجل استطيع تدبير امري»

وقال لي سرّها وكأني سأسمح لك بأن تقومي بالمهمة عني. وتساءلت عما سيحدث في عطلة نهاية الاسبوع، هل سيطلب منها العمل خلالها؟ من الشكر ان تقبل العمل صبيح السبت، اما بعد الظهر ويوم الأحد فلا. قررت الخروج في سيارتها الى نزهة غير بعيدة، بعد ذلك ستكتب رسائل الى الأصدقاء او تكتفي بمشاهدة التلفزيون في غرفتها... على الأقل ستكون هناك في مأمن من انتقادات كال ونظراته البارزة المتعجبة.

رفعت عينيها فجأة فوجدته يحدق فيها، وتشابكت نظراتهما لحظة في حوار صامت غريب. احست فاترا انفاسها. ما هو المعنى الذي تحمله نظراته؟ هناك شيء لا تستطيع فهمه. لم يكن العداء الذي عهدته منه، وحتى لو كان كذلك فانه عداء خفي... والى جانبه تعبير لم تعهده من قبل، اذ لم يكن هناك ذلك الاعجاب الواضح الذي يظهر في نظرات معظم الرجال. اعادت نظرها الى صحن الجبنة وتشاغلت بالأكل. ستريه انه لا يستطيع ازعاجها.

قالت له:

«سأباشر العمل في المكتبة بعد الفطور»

ونظرت اليه مباشرة بعد ان استعادت رباطة جأشها.

«ممتاز. واعتقد ان لوري سيكون هناك للمساعدة. هل فكرة كيف تسير امور العمل؟»

«على ما يرام، وهو يساعدني كثيراً. لقد اكتشفت ان ترتيب الكتب امر مثير للاهتمام اكثر مما كنت اتصور»

رفعت حاجبها. لماذا ترفع نفسها بأخباره عن العمل؟

ابتسم وكأنه يشجعها على المضي في حديثها:

«الآن انت مستمتعة في عملك؟»

انه قادر على استفزازها بمجرد كلمة يقولها او تعبير يظهره. . . والأسوأ من ذلك انه يعي قدرته تلك. وقد ادركت قلبيا انه تعمد الاستفزاز الخفيف.

«ولماذا لا؟ فالكتب مثيرة للاهتمام». وتابعت ببرود «ام انك لا تجدها مهنة فعلاً؟».

هز رأسه موافقاً.

«انا مهتم جداً، خاصة بالكتب التي تتحدث عن الدول الأجنبية . . واظن انك ستجدين عندنا كثيراً منها في المكتبة».

اجابته وقد نسيت استفزازه السابق:

«لقد فرزت عدداً منها من بين الكتب التي احضرتها حتى الآن». وفكرت في نفسها انه يبدو جذاباً جداً في بعض الأحيان. واضافت: «اعتقد هذه الكتب قديمة جداً وبحالة سيئة للغاية».

«ان بعض الكتب قديمة ومغطاة بالغبار. لذلك اقترح عليك ان تبقي الفسحة الى ما بعد انتهاء العمل ثم تخرجيها مساء».

نظرت اليه بحدة وقد اعجبها الاقتراح. قالت:

«سأفعل ذلك».

«ولا تحاولي ان تحملي الكتب بنفسك لفعلها، ليس خلال اليومين القادمين في اي حال».

«في الحقيقة، اريد ان اسأل: هل تعرف ما هي ساعات عملي غداً باعتبار انه السبت؟».

«لا. من كل ستتفاهمين مع السيد ماكلين حول ذلك، فهذا ليس من اختصاصي. لكني لا اعتقد انه سيعترض اذا ما اردت الراحة غداً. هل هناك مكان محدد تريدين زيارته؟».

نظرت اليه.

«لاقصد زيارة احد ما؟ لا، فانا لا اعرف احداً هنا. ربما خرجت في نزهة لاستكشاف الريف الاسكتلندي . . . وهذا كل شيء».

رفع احد حاجبيه قليلاً وهو يقول:

«وحدك؟ حتى بعد الذي تعرضت له مؤخراً؟».

«لا اعتقد اني سالتقي الشابين مجدداً. على الأقل ليس في الجوار».

واعترفت قائلة:

«معك حق. فلم يحصل ان حدثت مثل هذه الأمور في المنطقة. لكن من الممكن ان تضيعي في الريف الواسع؟».

ابتسمت وهي تقول:

«هل لديكم خريطة؟ صدق او لا تصدق، لقد جئت من لندن الى هنا مستعينة بالخريطة فقط. والواقع اني خبيرة في قراءة الخرائط واشارات السير».

وابقت الابتسامة على شفتيها لكي تشعره بأنها لا مبالية.

ضحك كال عالياً:

«انا متأكد من خبرتك».

ثم رفع وعاء القهوة وسألها:

«مزيد من القهوة؟».

«نعم».

راقبته وهو يسكب القهوة ثم يضيف بعض الحليب. وفجأة انفتح الباب ودخل رجل في الستينات من العمر، طويل القامة واشيب الشعر.

ولم تكن قلبيا بحاجة لمن يخبرها بان هذا الرجل هو جدها.

٥- المواجهة الأولى

خشيت فاليسا ألا تظهر على وجهها آثار الصدمة التي انتابتها، في حين وقف الرجل عند الباب لثوان معدودة. أحست بأنها ترى والدها مرة أخرى لكنه أكبر بعدة سنوات. كل شيء بدا لها مألوفاً: الطريقة التي يقف ويمشي فيها، الوجه النحيف ذو التقاطيع الحادة، والعينان الزرقاوان الغائرتان تحت حاجبين كثيفين. وأخيراً تكلم:

«ها أنتما هنا معاً...»

وحتى صوته بدا مألوفاً بحيث شعرت برغبة في القفز إليه واحتضانه عن تشخيصها... لكنها تمالكت أعصابها، فقد كان كال يراقبها، ثم استدار إلى الرجل القادم ووقف له.

سار القادم ماكلين باتجاههما:

«صباح الخير يا كال».

ثم حول نظرته الحادة إلى فاليسا وقال:

«صباح الخير يا آنسة كولينز».

اضطرت فاليسا إلى مصافحته عندما استدار نحو الطاولة، فاعتذرت له لأنها استعملت يدها اليسرى... وكانت ساقاها ترتجفان.

«هل تريد فنجاناً من القهوة يا سيد ماكلين؟»

سأله كال وهو يسحب له الكرسي حول الطاولة.

«طبعاً. لقد شربت فنجاناً في غرفتي ولكن لا مانع عندي من فنجان آخر».

استدار نحو كال الذي انشغل بسكب فنجان القهوة، ثم التفت نحو

فاليسا مرة أخرى.

«اعذريني لأني لم أكن هنا لاستقبالك. وآمل أن يكون كال قد قام بالواجب. هل جال بك في البيت؟»

«نعم، شكراً لك. كنا نتحدث عن أهمية الكتب الموجودة في المكتبة».

«إذن أنت تجدينها ملفتة للنظر؟ هذا جيد لأني أؤمن دائماً بأنه من الأفضل للإنسان أن يعمل في المجال الذي يحبه. هل واجهتك أية مشاكل؟»

«كلا يا سيد ماكلين».

كان عليها أن تنطق اسمه - أو بالأحرى اسمها - في وقت ما. وكلما بكرت كلما كان الأفضل. وعندما فعلت لم تجد الأمر صعباً كما كانت تتخوف.

«لكن حادثاً مزعجاً وقع ليدك! أنا متأسف لذلك».

كان الاهتمام الحقيقي واضحاً في صوته.

«كانت غلطتي في الأساس. وأنا متأكدة من أنها ستتحسن خلال أيام قليلة... والحادثة لن تؤثر على استمرار العمل».

اعتقدت في البدء أنها لن تستطيع التحدث إليه بشكل طبيعي، لكنها استطاعت. وكانت ستجد الأمور أكثر سهولة لو أن كال غير موجود. هذا الرجل غير المتوقع الذي خلق لديها شعوراً بالذنب وعدم الارتياح والذي يبدو أنه يستمتع بذلك.

وهنا تدخل كال:

«أوري يساعد الآنسة كولينز الآن».

«حقاً؟»

التفت إليها جدها بابتسامة خفيفة وقال:

«يظهر أني أسأت فهمه. لقد رفض في البدء باعتبار أنه مشغول جداً».

«ولعله اكتشف أنه يستطيع تدبير أمره في أي حالة».

ولم يكن في صوت كال أي معنى، لكن فاليسا فهمت مقصده وتمنت لو أنه يغادر الغرفة. والآن، بعد أن زالت صدمة رؤية جدها لأول مرة، وجدت نفسها تراقبه في محاولة لتبيّن ملامحه بعيداً عن أية مشاعر شخصية، كما لو أنه غريب تماماً. فهذا ما يجب أن تفعله إذا أرادت أن لا تنكشف قبل

ان يحين الموعد الذي لم تحدده بعد.

اكتفت فاليسا بإحناء، فهو ربما كان اندرو ماكلين يسأل كارل عن احوال البيت وعن الضيفتين اللتين زارتاه امس.

ثم قال:

«لقد ازعجنا قليلاً لانك لم تكن هنا، لكني حاولت جهدي ان اهتم بهما».

التفت الى فاليسا بتبسم، فردت عليه بنظرة باردة.

«سأتصل بهما هاتفياً في وقت لاحق. لم يكن بالإمكان الحضور امس، فالرحلات من باريس محجوزة كلها».

ابتلع آخر رشفة من قهوته ووقف قائلاً:

«يجب ان اذهب لاداء بعض الاشغال. اراك فيما بعد يا آنسة كورتيز».

وغادر الغرفة مثل جندي طويل يسير ثابت الخطى. خيم الصمت بعده لحظات، ثم تحدث فاليسا:

«يجب ان ابدأ العمل».

[illegible] التفت الى كارل [illegible]

«[illegible]»

[illegible]

[illegible]»

كانت تود ان تقول له: انت تعرف تماماً ما اقصد، لكنك تجد متعة في تعقيد الامور بالنسبة لي. لكنها قالت:

«اقصد اني سأتناول الغداء في غرفتي».

رفع حاجبيه ببطء:

«هنا مثلما فعلت امس».

تنفست فاليسا بعمق وهدوء:

«لقد عاد السيد ماكلين الآن. كان لطفاً منك ان تدعوني الى غرفة الطعام اول مرة، لكني مجرد موظفة في هذا البيت واتوقع ان... ».

«موظفة؟ يا لها من طريقة رائعة للتعبير عن الذات! صحيح انك موظفة، لكن هل تعتقدين ان ذلك يعني دعوتك الى المطبخ لتناول الطعام في احدى زواياه؟».

احست بان دمها يغلي وهي تكبح جماح غضبها. يا له من رجل متكبر عنيد.

«انا متأكدة انك تعرف ما قصدت. انت ضيف هنا، ولا اعتقد انك تقدر موقفي».

«لا اقدره فعلاً».

وضاقت حدقتاه بغضب وهو يضيف:

«ستدهشين لو عرفت ان السيد ماكلين سيندهش، بل سيغضب، اذا ما اقترحت تناول طعامك في اي مكان آخر».

ولم يعد في يدها حيلة. كيف يمكن لها اقناع رجلاً كهذا بانها لا تريد ان تأكل معه لانه يخيفها؟ انها لا تستطيع، وعليها قبول الواقع. وبدون ان تفوه بكلمة استدارت خارجة من الغرفة. وقبل ان تصل الى الباب كان هو هناك اولاً، وقال لها:

«اسمحي لي ان افتح لك الباب».

«شكراً لك».

وخرجت بسرعة بدون ان تنظر اليه ما اذا كان يلحقها، قاصدة المكتبة لتبدأ العمل [illegible] الى التفكير في الرجل [illegible]

[illegible]

اغلقت الباب وراءها ورمت بنفسها على احد المقاعد. ارتكنت الى الوراء وتساءلت عما اذا كان لوري سيأتي لمساعدتها، ومتى؟ احست ان الحادث الذي جرى بينهما اصبح من الماضي، مع انه وقع بالامس فقط.

وكم تمنت الآن لو انه لم يحدث ابداً! لقد عمل بنشاط وقدم مساعدة قيمة، لكنها بغنى عن اية مشكلات جديدة قد تزيد في اضطرابها الداخلي. ولذلك قررت ان تضع على الفور اية علاقة جديدة معه، اذ تكفيها مشاكل مع كارل وظهور جدها المفاجئ...

كانت منهمكة في العمل عندما قرع لوري الباب ودخل، حيته بابتسامة صداقة وقالت:

«صباح الخير يا لوري».

«صباح الخير».

ركز نظره على يدها المصابة وقال:
«كيف حالك اليوم؟».
«افضل قليلاً، شكراً لك».
لكنها عادت وتساءلت:
«كيف عرفت؟».
«انا قضيت وقتاً طويلاً هنا فستكتشفين ان الاخبار تنتقل بسرعة في البيت. على كل، الطاووس يخبر كل الناس. المهم ان تكوني حذرة فيما يتعلق بيدك، وانا سأقوم بكل ما يلزم».
«شكراً لك. يجب ان نعمل اولاً على الكتب التي ازلتها، لانني كنت بطيئة بالأمس».
من الافضل لها ان تركز الحديث على العمل والكتب. ووجدت فاليسا الفرصة لتكتشف الجانب الآخر من لوري الغارق في غمار العمل. انه يحب الكتب فعلاً، ام انه يجهد للتصرف بشكل طبيعي وكأنه نسي مواجهتها المبكرة اليوم.
مضى قبل الظهر بسرعة، بحيث فوجئت فاليسا عندما فتح الباب ودخل جدها الى المكتبة. وعندما شاهده لوري توجه للسلام عليه.
«صباح الخير يا سيد ماكلين. ان شاء الله كانت رحلتك موفقة؟».
«نعم، وشكراً يا لوري. يظهر انك مشغول ايضاً. هل تعرف كم الوقت الآن؟».
واندهشت فاليسا عندما عرفت ان الساعة تجاوزت الواحدة، وعليها ان تغتسل بعد. نهضت عن الأرض وهي تقول:
«انا آسفة، لقد استغرقنا في العمل».
«اعرف ذلك، لكن يجب ان تأكلي يا ابنتي. فهيا بنا. الكتب ستظل هنا عندما تعودين».
وانتظر عند الباب حتى خرجا.
حل لوري سترته ووقف ينتظر خروج فاليسا لكن تَمّ الرباط الواقي على «الضمادة»، بحيث اضطر لوري الى مساعدتها.
«شكراً لك».
وادركت فاليسا ان شيئاً ما دار لم يفت جدها. فقصدت الشابة الى غرفتها

ركضاً ثم غسلت وجهها وفكت الضمادة عن يدها وعادت مسرعة الى غرفة الطعام لتجد ان الرجلين على وشك الانتهاء من الحساء.
«انا آسفة».
لكن اندرو ماكلين قاطعها باشارة من يده وقال:
«لا ضرورة للاعتذار. من الجميل ان تجد انساناً يحب عمله الى الحد الذي ينسى معه الوقت». ثم نظر الى ثان وقال «وما رأيك انت؟».
«طبعاً... طبعاً».
كانت عيناه تراقبان فاليسا وكأنهما تسخران منها. ثم اضاف فجأة:
«هل عملت من قبل في مثل هذا المكان؟».
«كلا».
لقد رددت القصة المختلقة في ذاكرتها لأكثر من اسبوع، والآن تدرك ان كانت ستبدو معقولة في نظر الآخرين. يجب ان لا تظهر شعورها بالقلق:
«عملت سكرتيرة لمدة عامين، ثم قررت التغيير بسبب بعض المشاكل في العمل».
حتى الآن القصة حقيقية تماماً، ولكنها لن تخبرهم عن طبيعة المشاكل التي واجهتها:
«اخبرني صديق يعمل في مكتب محاماة يدعى موزلود وسميث وكيمبل».
وترددت امام هذه الاسماء كي تبدو غريبة عنها، ثم تابعت:
«عن ان سيداً اسكتلندياً هو انت، واشارت مبتسمة الى السيد ماكلين، يريد ان يعيد ترتيب مكتبته. وقد تقدمت الى هذه الوظيفة لأنني احب الكتب».
وضع جدها ملعقة الحساء من يده وتناول قطعة خبز وقال:
«الآن انت تعرفين شخصاً يعمل في مكتب المحاماة؟».
«اجل. انها السكرتيرة. ليست صداقة حميمة بقدر ما هي معرفة عادية».
ولم تكن فاليسا كاذبة، اذ ان بات جونز تعمل سكرتيرة في المكتب، وهي لا يمكن ان تفضح حقيقتها... مع ان المعلومات الحقيقية جاءت من

السيد موريتون نفسه.

«وهل اخبرتك عن السيدة اخرى؟».

اطلق هذا السؤال مخاطبها في حين كان كال يراقبها. صحيح انه لم يكن ينظر اليها مباشرة، الا ان تركيزه على سماعها كان واضحاً للغاية.

وقالت فاليتيا:

«لا. لكني لم افهم، هل تقصد السيدة اخرى عن العمل؟».

حك اندرو ماكلين خده وقال:

«لا لا شيء. والآن اخبريني يا فاليتيا، لا مانع عندك بأن اناديك باسمك المجرد؟ كيف ترين المكتبة؟ اقصد هل هناك تقدم؟».

استمعت اليه بشعور. اسئلته كانت معقولة وموزونة ومركزة حول العمل الذي تقوم به... لكنها احست بجو خفيّ من التوتر يسيطر على الغرفة، وهي تعرف مصدره. كان كال يفكر بعمق. اية اسئلة او احجية سيطرحها هذا الرجل؟ مهما كانت طبيعتها فانه لن يلقيها الآن. بل سينتظر الفرصة المناسبة للايقاع بفاليتيا كما فعل في اليوم السابق. والفته يحضر. يجب ان تكون مستعدة له في المرة المقبلة. لكن متى سيكون ذلك؟

اخبرها جدها في وقت لاحق من اليوم نفسه انها حرة يوم السبت. كانت الساعة الثالثة تقريباً عندما دخل عليها للمكتبة وهي وحدها، اذ ان لوري لم يكن قد عاد من الغداء بعد. ولانشغالها في العمل لم تنتبه الى دخوله، لكن سعلة خفيفة منه جعلتها تلتفت لترى وجهه النحيف. وكما في كل مرة تراه، احست برعشة من الاشمئزاز ممزوجة بمشاعر الخوف. ماذا لو اكتشف الحقيقة قبل ان تكون مستعدة؟

قالت وهي تضع القلم من يدها:

«انا آسفة. هل تريدني؟ لم اكن ادري انك».

«لقد دخلت بهدوء حتى لا ازعجك».

وابتسم لها، انها ابتسامة ابيها بالذات. ثم تابع يقول:

«لم يعد التأمل باعجاب النشاط الذي تمارسين به عملك».

نظرت فاليتيا الى الاكداس الكتب الموضوعة على الطاولة. لم يكن عندها ما تقوله، الا ان عقلها اخذ يحاول ان ينتقل الى شيء آخر. وفكرت انها ستظل منكبة اذا ظلت على هذه الحال خلال الايام القليلة المقبلة.

لم يتجه اندرو ماكلين الى صمت فاليتيا بل تابع قائلاً:

«انت حرة غداً، وبالطبع الاحد ايضاً. اعرف ان وسائل الترفيه غير متوفرة في المنطقة، لكن ارجوك ان لا ترددي في استعارة اي كتاب تودين الاطلاع عليه».

وعندها زال الجمود عن فاليتيا وتذكرت.

«اجل، هناك مجموعة من الجرائد القديمة موضوعة في صندوق كرتوني دلني عليها لوري... واود ان اطلع على البعض منها».

تغير وجه ماكلين العجوز بسرعة، وبدت على ملامحه تعابير الانشراح والسرور الطفولي.

«يا الله... الجرائد. انها بحاجة للترتيب ايضاً. هل تعرفين ان لدي نسخاً من صحيفة تدعى اوكسفورد غازيت يعود تاريخها الى العام ١٦٦٥. الحقيقة اني نسيت كل شيء عنها».

وهز رأسه متابعاً:

«اتمنى ان تقومي بترتيب هذه المجموعات ايضاً. لا شك انها سنوات عديدة مضت منذ...».

واطرق فجأة، وبدت على وجهه ملامح الحزن. لم تشأ فاليتيا ان تخرق جو الصمت لانها شعرت بوجود هذا الحزن القاسي... فحبست انفاسها وانتظرت، فهي تعرف لماذا!!

«مضى زمن طويل... طويل!».

مرت لحظات الحزن وعادت الامور الى طبيعتها.

«بالطبع افعلي ما يحلو لك. واذا اردت ان تحملي بعضها الى غرفتك، فكال...».

والتفت نحو الباب حيث كان كال واقفاً.

«لقد كنت اقول لفاليتيا انها تستطيع استعارة اية صحف. فهل لك ان تحمل الى غرفتها كل الصحف التي تريد؟».

«بالطبع».

ونقل كال نظره من فاليتيا الى جدها واضاف:

«انا آسف للدخول عليكما هكذا، لكن السيد ماكري على الهاتف، وقد حولت الخط الى مكتبك».

«شكراً».

وخرج أندرو ماكلين من المكتبة تاركاً غاليا وكال معاً. استدارت بسرعة إلى عملها لأنها لم ترد له أن يرى وجهها خوفاً من أن يلاحظ المشاعر التي اختلجت فيها قبل قليل... كما أنها تحتاج إلى وقت للتفكير.

قاطعها الصوت العميق الناعم:

«هل تريدين الصعود إلى غرفتك الآن؟».

«لا. شكراً لك».

لم تلتفت إليه. لكنها احست بحركاته وهو يتوجه نحوها، ثم ادركت انه بات خلفها تماماً.

«هل تريد شيئاً مني؟».

«كلا. أكمل ما تقومين به فقط».

كان الصوت ينبعث من وراء كتفيها. واحست غاليا بأنها تخطئ بحضورها هنا، لذلك طوت الملاءة بسرعة واستدارت لمواجهته. قالت:

«اني استطيع العمل في المكتب يا سيد غرين».

سحب كرسياً مجاوراً وجلس قبالتها وفي عينيه نظرة سخرية واضحة.

«السيد غرين؟ ألا تفضلين اسم كال؟».

«ليس بالضرورة. فأنا لا اعرفك تماماً».

اجابته بهدوء، لكنها تعجبت مرة اخرى كيف يشعرها هذا الرجل بالضعف عندما يكون إلى جانبها... تماماً كما هو حاصل الآن.

قال وهو يحرك يديه في جيبي سرواله:

«لكنك تنادين لوري باسمه الأول فقط».

«هذا شأني وحدي».

ونظرت مباشرة إلى كال غرين وهي تبتسم بهدوء وشماتة. انها تدرك تماماً ان ذكر لوري ماكنزي يثير غضبه بشكل سريع وفعال. واضافت تقول:

«ان امورنا تسير على ما يرام».

ارتفع حاجباه الاسودان، لكن وجهه الاسمر ظل دون تعابير واضحة:

«الطبع، انما امورنا نحن فليست كذلك؟».

«لا اعتقد».

راقبته وهو يفتح علبة سكائر، وعندما قدم لها سيكارة هزت رأسها بالرفض وقالت:

«كلا. شكراً لك». ثم اضافت «الحقيقة انك تحاول دائماً ان تكون قاسياً وفظاً معي».

وتابعت في نفسها تقول «بينما المطلوب مني ان اظل هادئة».

قال:

«اعتقد انك تتحدثين عما جرى بعد ظهر امس؟».

اشعل سيكارته من الولاعة التي اضاءت جانباً من وجهه، فبدا الجانب الآخر اكثر سمرة وصرامة.

«اجل».

من الأفضل ان تنقل المعركة إلى معسكر الخصم، فلا شك انه يعد شيئاً ما لوقت لاحق. ففي المكتبة، تشعر غاليا لسبب من الأسباب بأنها على ارض آمنة، اكثر امناً من تلك الغابة الخضراء المشمسة التي اشعرتها بأنها ضعيفة للغاية خاصة بعد اختراق يده لها. وتابعت كلامها بالقول:

«لقد كنت فظاً بشكل يفوق التصور خاصة أني كنت في حالة يرثى لها بسبب يدي. واعتقد انك تعمدت ذلك».

«اجل، تعمدت ذلك».

تعجبت. كانت تتوقع منه ان ينفي. لا ان يعترف بسهولة، ومنه بنظرة حادة، وظلت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم اطلقت لسانها:

«اذن، كان موقفك سخيفاً وغبياً».

«انا اوافق».

سحب نفساً عميقاً من السيكارة، والتفت يبحث عن منفضة ولما وجدها وضعها إلى جانبه، ثم قال:

«لكني لدي اسبابي الخاصة».

«حقاً، وهل لي ان اعرف ما هي هذه الأسباب؟».

اجابها بهدوء تام:

«انت تعرفينها تماماً، اليس كذلك؟».

وعاود غاليا ذلك الشعور البغيض بأنها على وشك ان تفقد السيطرة

على نفسها: لكنها هي التي بدأت المعركة وعليها ان تستمر فيها:

«هل تعتقد اني لعبة او اي شيء عاقل؟».

«لعبة؟» ردد الكلمة وكأنه يفكر فيها. ثم ابتسم ببطء شديد «لا، ليس كذلك، على الاقل لم اعتبرك لعبة . . . حتى الآن».

اشتعلت بالغضب بفعل الطريقة التي اطلق فيها الكلمة الاخيرة وخرجت التعابير من فمها قوية قاسية:

«وماذا بعد؟».

اجابها قائلاً:

«لست ادري، ولكني سوف اعرف».

ردت عليه بلهجة آمرة:

«فلماذا لا تغادر هذه الغرفة فوراً وتتركني لوحدي؟

لست مضطرة لسماع اهاناتك، بل لست مضطرة لسماع اي شيء منك. هل تفهم؟».

وقفت في وجهه وعيناها تقدحان شرراً، وكنت لو انها رجل لاذاقته درساً لا ينساه. ويبدو ان بعضاً من افكارها وجد صدى لديه بحيث وقف في مواجهتها بدون ان يتحول عن مكانه. والآن عليها ان تنظر الى اعلى كي تراه، وهذا شيء تكرهه لأن طوله الاضافي يشعرها بانها اصغر منه واضعف ايضاً.

«اذهب من هنا ارجوك. فهذا مكان عملي، ولا استطيع ان اعمل ما دمت انت هنا».

«لا ضرورة للتخبط. سوف اذهب . . . لكن بعد لحظات. ستكونين ممنونة لما ذكرت بطردي بالقوة».

«لو كنت رجلاً لفعلت».

تسارعت نبضات قلبها غضباً واضطرت الى الابتعاد عنه لانها لم تعد قادرة على مواجهته. لكنه وضع يده على ذراعها واعادها الى مكانها.

«قولي لي . . .».

لم تدر ماذا كان في صوته، لكنها قاطعته وهي تلوي اصابعه بشدة حتى اطلق سراحها.

«اياك ان تلمسني. انا اكرهك واكره لمساتك».

«فهمت، تعنين لمسات لوري فقط؟».

«كيف تجرؤ . . .».

قاطعها قائلاً:

«دعك من هذا. لا تقولي لي انه لم يعانقك قبل لحظات من دخولي عليكما . . .».

«صحيح؟!».

ادركت على الفور ان خديها تضرجا بالدم، مما جعل كال يضحك.

«لقد كان الأمر واضحاً تماماً. عناق صغير عابر. أترى كيف تقارنين ذلك العناق بهذا؟».

وقبل ان تستطيع الحراك وضع ذراعيه حولها. وفجأة اصبحت الغرفة مظلمة لأنه صار قريباً جداً منها، الى حد انها ضاعت بين ذراعيه. احست بالدفء في صدره. كان لطيفاً وهادئاً بعكس ما توقعت. وطالت لحظة العناق بدون ان تبدي مقاومة. وادركت على الفور انها مرتاحة للأمر، فاخترقها الخوف بحيث استجمعت شجاعتها وابتعدت عنه.

«ايها الوحش».

ورفعت يدها الى وجهها تريد حماية نفسها من هجوم آخر وشيك.

غابت عيناه الزرقاوان خلف سحابة سوداء، ولم تستطع طاليا ان تفهم تعابير وجهه. ظلا للحظات ثقيلة صامتين في مواجهة بعضهما البعض قبل ان يغادر كال الغرفة. واخيراً اصبحت لوحدها. وظلت واقفة في مكانها لعدة ثوان. فالصدمة منعتها من الحراك، وفي الوقت نفسه جعلت ساقيها ترتجفان بشدة. واخيراً استعادت روعها ورمت نفسها في اقرب مقعد.

تشاغلت ببطاقة مرمية على الطاولة لكن فكرها كان في ذلك العناق والشعور الذي ملأها خلاله. لم تكن مستاءة او مضطربة حسب ما توقعت. فالعناق كان جميلاً جداً . . . هذا هو الوصف الوحيد المناسب له.

تمتمت بصوت منخفض «لا شك اني مجنونة!».

الموقف سيكون محرجاً اذا عرف تفكيرها. انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً الآن. كان عليها ان تصفعه حينها كرد فعل طبيعي من امرأة ترفض العناق بالقوة. لم تصفعه، ليس خوفاً من ردة فعله، بل لأنها لم ترد ذلك.

قررت العودة الى العمل فوراً وتناسي ما قد حدث. النتيجة الايجابية

الوحيدة كانت انه توقف عن طرح اسئلته المحرجة. لا شك انه سيعيد طرحها في وقت لاحق. لكن متى؟ اكدت لنفسها حاسمة «ساكون جاهزة له المرة القبلة! ساكون مستعدة تماماً».

وتساءلت عما اذا كانت تحاول اقناع نفسها بهذا القرار.

انتهى يوم العمل وحان وقت العشاء. لقد تمنت فانيسا لو ان كال وجدها يقرران تناول الطعام خارج البيت... ولكن [illegible] لم تحصل، وعندما وصلت الى غرفة الطعام وجدت الرجلين يتحدثان وهما بانتظارها. استدار جدها مبتسماً وهي تدخل الغرفة.

«ها انت هنا اخيراً. كنت ساقول لكال...».

قطع كلامه عندما وقعت عيناه على الفستان الرمادي الذي ترتديه،

«تبدين جميلة جداً في هذا الفستان. هل تريدين تناول اي شيء؟».

«شكراً لك. اريد كوباً من عصير التوت من فضلك».

«بالطبع، وانت يا كال؟».

كان كال قد توجه الى الطاولة لتناول الكوب. وراقبته فانيسا وهو يعد كوباً لها وآخر له. «ماذا حل في نظراته اليها عندما دخلت الغرفة؟» ستعرف فوراً، فقد انهى اعداد الكوب واستدار نحوها ليقدمه لها. كان لا مبالياً تماماً، ولم يظهر شيء على ملامحه يمكن ان يعطيها فكرة عما يفكر. فقط ابتسامة مؤدبة وهو يقدم لها الكوب:

«تفضلي يا آنسة كوليتز».

«شكراً لك».

رد بانحناءة خفيفة من رأسه، وقد كانت خفيفة بحيث لم تشعر فانيسا بها، واذا لاحظت طرف ابتسامة ساخرة لم تستمرّ الا لحظات، قبل ان يستدير لمتابعة الحديث مع الرجل العجوز. بعد ذلك دخلت السيدة باتكس تدفع امامها عربة الأكل فتوجه الجميع الى المائدة. حبذا لو لم يكن موجودا لكانت مهمتها اسهل بكثير. لكنه سيبقى في البيت لفترة غير محددة، ومن الافضل لها ان تعتاد هذا الواقع.

جلسوا لتناول الطعام وهم يتبادلون الاحاديث العامة المسلية. وفكرت فانيسا كم ستكون الامور مختلفة لو انها موظفة حقيقية وليست حفيدة صاحب البيت. فهي قد بدأت تستمتع بعملها في المكتب الى جانب اعجابها

بالبيت. لكنها هنا في مهمة وستواصل لعب دورها تنفيذاً لوعد قطعته على نفسها من اجل والدها المتوفى. نظرت مبتسمة لترد على سؤال وجهه كال بدون ان تظهر اي مشاعر تعتمل في نفسها، وكان سؤاله عما قررته بالنسبة الى عطلة نهاية الاسبوع.

طيلة فترة العشاء كانت فانيسا تراقب جدها بدون ان يلاحظ ذلك، تتأمل حركاته وتصرفاته والطريقة التي يتكلم بها. حاولت ان تبعد عن ذهنها الصورة المسبقة التي رسمتها له من خلال احاديث ابيها. لم تكن المسألة سهلة، فقد تصورته رجلاً قاسياً متوحشاً، لكن اندرو ماكلين هذا غير الصورة تماماً، فهو لطيف معها ومع الرفاقة. الى حد انه يصرّ على ان تتناول طعامها الى مائدته.

وقبل انتهاء العشاء اختلست فانيسا نظرة الى جدها. سمعوا رنين جرس الهاتف من بعيد، ثم دخلت السيدة باتكس وابلغت السيد ماكلين ان هناك مخابرة هاتفية عاجلة له.

«من يطلبني؟».

«قال ان اسمه ماكوينلان».

وتنحنحت عندما لفظت الاسم، وكأنها تريد ان تقول انه غير حقيقي.

تصلّب وجه اندرو ماكلين عندما سمع الاسم. وخيل لفانيسا انها شاهدت لمحة من الغضب لم تدم الا لحظات. التفتت عضلات فكيه وهو ينظر الى كال. سأله هذا الاخير بهدوء:

«هل تريدني ان اردّ؟».

«كلا».

جاء الجواب مختصراً آمراً وحاداً، ثم خرج من الغرفة. وركزت فانيسا نظرها في صحنها، لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر الى الرجل الجالس قبالتها. كان يراقبها بدون ان يظهر اية مشاعر. وفجأة خفق قلبها بنزع لا تفسير له... فهي لا تستطيع ان تفهم معنى نظراته عندما يكون هكذا. ففي عينيه عمق سحيق من الصعب كشفه بسهولة، وقد ادركت ذلك منذ اليوم الأول للقائه. احست بخفقات قلبها تتسارع، فقالت بدون وعي اول كلمات خطرت لها:

«لماذا تنظر الي هكذا؟».

أجابها بصوت ناعم وساخر:
«على النظر تعتريه».
وأجابته:
«أنت تحدق بي، وأنا لا أحب ذلك».
«آسف يا طفلة، هناك أشياء كثيرة لا تحبينها فيّ، لكنك ستحاولين التأقلم ما بقيت هنا».
ولاحظت أنه شدد كثيراً على كلمة «هنا».
رفعت فاليسا حاجبيها وقالت:
«لا تخف، أنا باقية هنا ما دام عملي ممتعاً وناجحاً، وأنا متأكدة منه. على الأقل السيد ماكلين لا يشكو مني، وهو وحده صاحب العمل».
وقالت في سرّها «ولذلك يجب أن تسكت نهائياً».
ابتسم كال قائلاً:
«أنا أكيد أن عملك ممتاز من خلال ما رأيت حتى الآن. لقد قدّرت نشاطك، لكنني أعتقد أنك تعرفين تماماً ما أنت بصدده».
في هذه اللحظة عاد جدها إلى الغرفة، فتوقف الحديث بينهما عند هذا الحد. نظر السيد ماكلين باتجاه كال وبدا على وشك أن يقول شيئاً لكنه بذل جهداً للسيطرة على نفسه. شعرت فاليسا بأنه غاضب، وأدركت أنه لولا وجودها لكانا قد أفلتا من الاتصال اللفظي. نظرت إلى الساعة ونهضت. لقد انتهوا للتو من العشاء، وتريد أن تترك الرجلين وحدهما ليتباحثا في أمورهما، وهي تعرف أنهما يرغبان في الانفراد أيضاً.
وعندما استأذنت بالانصراف بعد لحظات، لم يبد أحد منهما أي اعتراض. هرعت إلى غرفتها بخطوة رشيقة، وما إن وصلتها تذكرت ما قاله كال عن أنها تعرف تماماً ما هي بصدده. الأكيد أنه لم يكن يقصد عملها في المكتبة. كم أصبحت تكرهه الآن.
مرت عطلة نهاية الأسبوع على أحسن ما يرام. ففي يوم السبت استعارت فاليسا خريطة أعدها لها جدها ووجدت قرية جميلة تقع على الطرف الآخر من الوادي، وهناك أمضت فترة بعد الظهر تراقب أطفالاً صغاراً يلعبون في حديقة يمتد طرفها حتى الشاطئ. رجعت إلى دينستون هاوس وقت العشاء وقد أنعشتها مناظر الريف الخلابة. وبعد تناول الطعام شاهدت

التلفاز مع جدها. كانت تفضل ألا تكون معه، لكنه لم يترك لها الخيار. وبالرغم من شعورها بالارتياح في بادىء الأمر إلا أنها فوجئت عندما أعلنت الساعة في الكنيسة القريبة بأن الساعة قد شارفت منتصف الليل.
كان كال قد غادر البيت بعد العشاء مباشرة. صعدت إلى غرفتها لتحضر حقيبتها فسمعت صوت محرك سيارة يدار نزولاً باتجاه مدخل البيت. تساءلت عما إذا كان ذاهباً للقاء هيذر الخبيثة. الأرجح أنه سيفعل. وفجأة وجدت نفسها تتساءل أيضاً عما إذا كان يعامل هيذر بالطريقة التي عاملها فيها اليوم. ابتعدت عن النافذة بنزق وحملت حقيبتها ونزلت إلى الصالون. يا لها من أفكار سخيفة تضج في رأسها.
كانت مستلقية في فراشها عندما سمعت صوت محرك سيارة الجاكوار أمام البيت. ومن خلال أشعة القمر الفضية المتسللة عبر الستائر المرفوعة تبينت فاليسا أن الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. ولشدة استغرابها، اكتشفت أنها ظلت تنتظر حتى سماع هذا الصوت. والآن، بعد أن اطمأنت إلى عودته، يمكنها أن تذهب إلى النوم... وهكذا صار.
الأيام القليلة التالية كانت أيام عمل بالنسبة لفاليسا وتروي. وبقدر ما وجدت نفسها غارقة في الكتب، وجدت أفكارها مشغولة أيضاً بالرجل المتحول الذي اسمه كالوم فرين. أما مشاعرها تجاه جدها فكانت متضاربة. لقد شاهدت منه ملامح من الوصف الذي أعطاه والدها الراحل، لكنه في معظم الأحيان الرجل الطيب المرح. بدأت تشعر بالارتباك الداخلي ليتها تستطيع الثقة بأحد كي تطلب منه النصح. وفي بعض المرات كانت تجتاحها موجات من الندم، ولكنها لا تستطيع أن تبدل شيئاً. الشخص الوحيد الذي يعرف سبب وجودها في دينستون هاوس موجود في لندن، ومن الصعب أن يتعاطف معها. فقد رفض السيد مورتون فكرتها من الأساس، والأرجح أنه سينصحها بترك المكان أو بالإبلاغ عن الحقيقة قبل فوات الأوان. لكنها قطعت شوطاً بعيداً جداً بحيث لم تعد قادرة على التراجع.
ترددت وهي ترجع كتابين قديمين جداً إلى المكتبة، وقد اعتراها شعور غريب بالوحدة والانعزال. كان الوقت بعد الظهر من يوم جمعة بارد ومظلم وليس كالأيام التي سبقته. الغيوم الداكنة تلبد وجه السماء واعدة بالمطر

المتجر. وتمنت لو ان لوري يعود من الغداء بسرعة، خاصة انه يرافقها يومياً في عملها في المكتبة.

لقد اقامت مع لوري علاقة صداقة عبر خلال اسبوع من العمل اليومي المتواصل. ومع ذلك لم تكن متأكدة من انه محل للثقة، اذ شاهدت عدة مرات وهو ينظر اليها نظرات لم تعرف معناها تماماً ولم تكن مهتمة للامر، فقد اصبحت قادرة على التأقلم كونها غير مهتمة به كرجل. وباصرار شديد ابعدت صورة كال عن ذهنها... كال الموجود دائماً والذي يراقبها دون ان يبدو عليه ذلك.

دخل كال الى الغرفة في هذه اللحظة بدون ان يصدر اي صوت، وفوجئت فاليسا بوجوده فسقطت الكتب من يدها.

اقترب نحوها وانحنى يلتقط الكتب:

«يجب ان لا ترى اخذ هذه الحالة. فالكتب قديمة جداً ومهمة» سلم الكتب الى فاليسا وهو يضحك.

«شكراً لك» واستدارت نصف دورة وهي تقول:

«لو لم تتسلل الى المكتبة لما كنت اسقطت الكتب».

«هل كنت اتسلل؟».

نظر الى حذائه المطاطي الخفيف واضاف قائلاً:

«ربما يجب ان انتعل حذاء التسلق عندما ادخل الى هنا. صحيح انه سيزعجني، لكنك ستعرفين انني هنا. الا تفضلين هذا الحل؟».

«بدون مجاملات ارجوك!».

حاولت الوصول الى كتاب في الرف العلوي فلم تستطع رغم طولها، وكان هو اسرع منها اليه فناولها اياه.

سألها بعد ان تناولت الكتاب مستعملة يدها المصابة:

«يبدو انه يملك افضل اليوم؟».

«أجل. هناك ندوب حمراء فقط ستزول مع الوقت».

«ستزول خلال اسبوع تقريباً. هل تستطيعين الآن اخذ اول درس من تمارين الدفاع عن النفس؟».

لم تستطع مقاومة العرض، ولم تكن ترغب في القبول ايضاً لكن الكلمات خرجت تلقائياً:

«هل الدروس للدفاع عن نفسي ضد الناس مثلك يريدون عناقي بالقوة؟».

ضحك كال فرحاً عالياً، فبانت اسنانه البيضاء اللامعة وسط وجه كان كل ما فيه يضحك، واعترف قائلاً:

«هذه فكرة ممتازة، ويجب ان اراقب نفسي جيداً، اليس كذلك؟».

شعرت بالضيق من استمرار الحوار، لذلك ابتعدت عنه لمتابعة عملها وهي تقول:

«اعتقد ان هناك اشياء كثيرة تحتاج الى ترتيب، لذلك يجب ان...».

وقاطعها قائلاً:

«... وخائفة ايضاً؟».

ومع ان صوته كان ناعماً، الا انه اوقفها في مكانها.

ابتسمت بافضل ما تستطيع وقالت:

«منك انت؟ ابداً».

كانا يعرفان بعضهما وقد خيم جو من التوتر الذي ينذر بالانفجار في اية لحظة. واعتقدت انه سيثير جدلاً موضوع تحضيرها الخارجية لذلك سارعت الى القول:

«اذا كنت تريد تدريبي، فانا اقبل. لكنني لست افهم سبب المماطلة!».

«لقد شاهدت تعابير وجهك عندما خرجت الى مبارزة الاسبوع الماضي. كنت عاجزة تماماً».

«حسناً، كنت خائفة بالطبع. لكني...».

«لن تكوني في مثل هذه الحالة ابداً عندما انتهي من تدريبك. فمتى نبدأ، غداً صباحاً؟».

وسألته بحيرة:

«ألست مشغولاً؟ أقصد غداً السبت».

«لا شيء يستحق الذكر». واضاف بلطف واضح «حسناً، ساراك في غرفة الرياضة بعد ساعة من الافطار».

وتساءلت باهتمام ملحوظ:

«ماذا يجب ان ارتدي؟»

لاح خيال ابتسامة على شفتيه وهو يقول:

«وكذلك ارتداء بذلة التدريب الخاصة بالجودو. هناك مجموعة منها ستحضر لك واحدة منها عند الصباح، فذلك افضل من تعريض ملابسك للشد والتمزيق. ومع ذلك يجب ان ترتدي قميصاً داخلياً تحت ملابس الجودو».

قالت وهي تضع الكتب على الطاولة:

«حسناً، هل يمكن لي ان اتابع عملي الآن؟».

«اجل. لقد جئت لأبلغك انني والسيد ماكلين سنتناول العشاء في الخارج. وهو يسألك اذا كنت ترغبين في تناول العشاء في غرفتك؟».

«افضل ذلك».

وكأنما كانت تفكر بترجمة عندما نطق اسم السيد ماكلين، اذ بدا وكأنه على وشك ان يضيف شيئاً ثم توقف. فماذا يريد ان يقول؟ ما هو الشيء الذي يخفيه عني الآن؟

ولم تأخذها افكارها الى ابعد من ذلك. فمن غير المعقول ان يعرف شخصيتها الحقيقية. ترى هل يمكن ذلك؟

وعلى الرغم مما كان يدور في ذهنه، فانه لن يبح الآن، اذ هز رأسه مودعاً وغادر الغرفة. ظلت واقفة شاردة الذهن تراقب الباب المشرع. تساءلت وهي تعض على شفتها السفلى عن المأزق الذي وضعت نفسها فيه وعما تحمله لها الأيام المقبلة.

أطل صباح يوم السبت مشرقاً ودافئاً، بعد ان رحلت غيوم الأمس بعيداً. استيقظت باكراً وهي تحس بقلق خفيّ وغريب. ثم تذكرت ان كال غرين سيعطيها اول درس في الدفاع عن النفس اليوم. لم تعد قادرة على الثقة فيه فبدأت تشك بكل ما يقوله او يفعله. ما هي خلفيات هذا العرض؟ وظل السؤال يلحّ طيلة الوقت الذي امضته في الاستحمام وارتداء ملابسها. عليها ان تستعد لأية اسئلة محرجة قد يطرحها، خاصة انهما ستكونان وحدهما في غرفة الرياضة.

ارتدت سترة صوفية بيضاء على فستان ازرق سماوي، وانتعلت حذاء خفيفاً، ثم تركت شعرها الاسود حراً منسدلاً... واخيراً لمسة من احمر الشفاه، وها هي جاهزة الآن. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما

نزلت الى غرفة الطعام. تعمّدت النزول باكراً كي تتناول فطارها وحيدة قدر الامكان، لكن كال غرين كان قد سبقها، بل وهو على وشك انهاء فطوره. حيّاها قائلاً: «صباح الخير».

«صباح النور».

وتناولت قطعة من الخبز بعد ان جلست في مواجهته.

رفع عينيه اليها وقال:

«ترغبين بعض البيض باللحم؟».

«لست جائعة كثيراً».

سألها بنغمة هادئة:

«هل انت متوترة الأعصاب؟».

نظرت اليه ببرودة وقالت:

«متوترة الأعصاب؟ كلا. ولماذا التوتر؟».

«لا شيء. لكن يبدو لي انك- اعذري كلامي- شبه خائفة».

«لا بد ان خيالك يزين لك الأمور».

وتابعت حديثها بحذر بالغ لأن عينيه بدأتا البحث في تعابير وجهها:

«لكن الحكمة تقضي بأن لا أملأ معدتي قبل بدء التمارين».

«صحيح. انه موقف سليم جداً. ولذلك قررت البدء بالتمارين بعد ساعة من الآن».

«حسناً جداً. وبالنسبة الى البذلة الرياضية فارجو ان لا تزعجي نفسك باحضارها لي. سأرتديها تحت عندما انزل، فهناك مكان لتغيير الملابس، أليس كذلك؟».

«عظيم. سأجهز لك واحدة. والآن اسمحي لي ان اذهب لأستعد».

وقف واعاد الكرسي الى مكانه، ثم اضاف:

«لن يفطر السيد ماكلين معنا فقد اضطر الى مغادرة البيت باكراً. اذن سأراك حوالي...» واختلس نظرة الى الساعة وتابع «حوالي العاشرة الا ربعاً في غرفة الرياضة؟».

«اجل».

راقبته وهو يغادر الغرفة ثم سكبت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة. كم كانت غبية عندما قبلت عرضه في الأساس!

في تمام الساعة العاشرة الا عشرين دقيقة توجهت فانيسا الى غرفة الرياضة. وبعيداً عن ملامح الهدوء المرتسمة على وجهها، كان داخلها يحتفل بمشاعر التوتر والقلق والترقب. مهما حدث، يجب ان تخفي احاسيسها الداخلية كي لا يشمت كال بها. لا تراجع الآن. ترددت قليلاً امام الباب، اذ بمجرد دخولها الى الغرفة عليها ان تستمر في اللعبة حتى النهاية. استجمعت انفاسها وفتحت الباب بسرعة.

المكان غارق في سكون عميق، فكال غرين لم يأت بعد. لمحت فانيسا فرشة الجودو الموضوعة وسط الساحة وهي تتجه الى غرفة تبديل الملابس. وقبل ان تدخل تمهلت، اذ انها سمعت ما بدا لها وكأنه صوت امام الباب الخارجي. وعندما لم يتكرر الصوت استدارت لتدخل، فاصطدمت مباشرة بالرجل الذي خرج لتوه من غرفة تغيير الملابس. امتدت يدا الرجل لاسناد فانيسا. كان يرتدي ملابس الجودو البيضاء، التي طالما شاهدتها في الصور وعلى شاشة التلفاز ولكن ليس في الواقع. وبسرعة لاحظت التغيير الذي طرأ عليه. فقد اظهرت الملابس قامته [illegible] وكتفيه العريضين. ومن خلال فتحة السترة بان القسم الاعلى من صدره الكثيف الشعر.

حاولت فانيسا استعادة توازنها بعد هذه الصدمة. ولو كانت قادرة على الهرب فوراً لما ترددت، لكنه امسك بها بقوة ولم يتركها الا عندما هدأت.

«هذا انا» كان صوته نقياً، وعيناه مركزتين عليها. «ملابسك في الغرفة الثانية، والافضل ان اعلمك كيف تربطين الحزام حول خصرك. هيا بنا».

ابتعد عن الباب ليفسح لها مجال الدخول. وكمن يساق الى ساحة الاعدام، دخلت فانيسا الغرفة الثانية ببطء وهي مطأطأة الرأس.

٦ - السر الدفين!

«لقد غيرت رأيي، فلننس الامر برمته».

انطلقت هذه الكلمات على شفتي فانيسا وهي تواجه كال غرين على فرشة الجودو، لكنها لم تستطع ان تنطقها ابداً. اخبرها ان الفرشة مصنوعة من البلاستيك وهي محشوة بنبات الأرز بعد حصاده وتجفيفه. المعلومات غير مهمة بالنسبة لها، المهم وجودها اساساً في هذا المكان. نظرت الى نفسها في الرداء الابيض فأدركت لماذا طلب منها كال ان ترتدي قميصاً داخلياً. ذلك ان الرداء كان فضفاضاً بالرغم من الحزام الذي يشده حول خصرها. وعندما ربط لها الحزام، ابلغها ان السترة كثيراً ما تتمزق خلال التدريب، وطلب منها بالمحافظة على حشمتها لا تهتم، على الاقل في المراحل الاولى.

لاحظت فانيسا ان كال قد تغير بشكل يصعب تحديده. بدا وكأنه انسان آخر تماماً. فهو هادئ، وواثق من نفسه بطريقة لم تعهدها فيه. نظر اليها وقال:

«اولاً، وقبل كل شيء، يجب ان نحمي الجسد، اي ان نعد عضلاتنا للمعركة. فأريدك ان تراقبيني وتفعلي ما افعل بحذافيره. هل انت جاهزة؟».

«انا جاهزة».

مررت فانيسا لسانها لترطب شفتيها الجافتين. عليها ان تركز على التدريب. فمهما كانت الاسباب التي تدفعه الى مساعدتها، لا شك انها مستفيدة من دروس الدفاع عن النفس، ولهذا السبب فقط يجب ان تعترف له بالفضل. بدأت تكتشف ان حركات التحمية سهلة للبداية، وسرعان ما

شعرت بأن عضلاتها لانت وارتخت خاصة عندما نفذت الفقرات الأمامية التي كانت تعتقد انها عاجزة عن القيام بها.

«يكفي هذا. لننتقل الى المرحلة الثانية».

توجه اليها وهو يقول:

«قفي منتصبة وارخي جسدك. اجل هكذا.. كلا، رقبتك ما تزال متصلبة. ارخيها تماماً».

كانت لمسته قوية دون قسوة ولا تحمل اي معنى شخصي. حركت فانيسا رأسها استجابة لحركات اصابعه، وسمعته يقول:

«هذا افضل. والآن، قبل ان اعلمك حركات جديدة، يجب ان تتعلمي السقوط الدفاعي بحيث لا تؤذين نفسك اذا ما سقطت».

«انا مستعدة».

استغربت كيف ظلت تحس دفء لمسته بالرغم من انه سحب اصابعه منذ فترة. اخذت نفساً عميقاً لتسكن روعها وتمنت فعلاً لو انها تستطيع ان ترتاح كما يطلب منها. كم ستكون الأمور اسهل اذا ما تناست شكوكها دون كلل... وركزت على...

«هل تستطيعين... فانيسا»

«انا مستعدة».

فتمدد [illegible]... نظرت اليه فلم تر [illegible] على وجهه. غير العداء والتوتر ذهب الى غير رجعة، وكلامه كان هادئاً ورصيناً. لذلك شعرت بالراحة.

«استلقي الآن. سأقوم امامك بالسقطة الدفاعية».

وسرعان ما استلقى على ظهره بحركة واحدة قوية.

«والآن راقبيني، اولاً يجب ان تمارسي هذه الحركة، ثم تأتي حركة الانحناء البسيط المؤدية الى السقطة المرتجة.. واذا ما نفذت الحركة بحذافيرها ستجدين ان بامكانك السقوط دون اي اذية».

تابعت فانيسا مراقبة هذا الرجل، كان هناك شيء جذاب حوله، وهي تريد ان تتعلم بسرعة كي تثبت له انها تلميذة مجتهدة. وهكذا لاحظت حركاته، راقبته وهو يتدحرج على كتفه ويده ممدة على طولها، لتلقي صدمة الارتطام بالأرض ثم تأتي قدمه لاكمال الحركة. على وجهه امارات التركيز

الشديد، لكن كلماته كانت هادئة طيلة الوقت، وهو يخبرها عن تفاصيل السقطة الدفاعية «يوكوبوكومي». وهي احد الاسماء اليابانية للعبة معروفة عالمياً بحيث ان الناس الذين لا يعرفون الا لغتهم القومية قادرون على فهم المعاني كاملة.

فجأة انتفض واقفاً، جاء صوته عميقاً وهو يقول:

«هيا، استلقي ارضاً، لقد حان دورك».

اطاعته فانيسا على الفور، واستلقى هو قريباً منها.

«هذه هي الطريقة، الذراع ممدودة على طولها، حسناً، والآن طبقي ما اقوم به».

احست فانيسا بالضياع لفترة قصيرة. فقد كان هناك شيء غريب حول كال غرين وهو يلعب دور المدرب الغريب القادر على اداء مهمته بنجاح. فمع كل حركة وكل كلمة وكل لمسة مساعدة منه كان جسمها يستجيب بسهولة. انها تريد اتقان اللعبة.

وظل حين مرة طلب منها ان تتوقف:

«هذا يكفي، دعينا ننتقل الى [illegible]».

«اعتقد [illegible] على [illegible]».

«احسنتِ [illegible]».

«لا [illegible]».

ولكنها شعرت بأنه مسرور من ادائها بدون ان تدري سبب هذا الشعور. جعلها تعيد تنفيذ السقطة الأمامية، اولاً من موقع الوقوف، مساعداً يلعب على انحناء رأسها داخل جسمها وتقريب القدم اليسرى على اليمنى ثم من موقع الحركة... وكل ذلك بدون ان تبدو عليه اية مشاعر او تعابير.

«يكفي الآن، سنأخذ قسطاً من الراحة. اجلسي على الفرشة وسأقوم امامك ببعض الحركات. بينما ترتاحين قليلاً. فيجب ان لا تجهدي نفسك، وارجو ان تخبريني حين تشعرين بالتعب».

ومع انها راقبت الحركات التي اداها خلال الدقائق القليلة التالية الا ان اهتمامها لم يكن مركزاً فيها. لقد اخبرها قبل ان يبدأ انه لن يعلمها اية سقطات غير السقطة الاولى، على الأقل في هذه المرحلة. لكن لا شيء يمنع

من ان يعرض امامها بعض الألعاب التي سيأتي دورها لاحقاً. وجدت نفسها معجبة بحركاته الرائعة. تعرف تماماً انها لن تستطيع تقليد ما يقوم به، وهو بدوره لا يتوقع منها ذلك. ولكن الذي اثار اعجابها هو الرجل نفسه، فلقد كان انساناً مميزاً. لم تكن ملابسه وحدها مختلفة، بل تميزت كل تصرفاته وتعابيره بطريقة جعلتها تشعر – واستغربت ذلك كثيراً – بالاحترام الشديد له. كان واثقاً مما يقوم به، بالاضافة الى قدرته على افهام فاليسا طبيعة الحركات الصعبة.. فاستعادت ثقتها بنفسها بعد ثوان قليلة من نزولها الى الحلبة وبالتالي تمكنت من اتباع كافة التعليمات التي اعطاها.

عادت الى الواقع عندما انهى كال حركاته الاستعراضية. سألها:

«هل انت مستعدة؟».

كان شعره مبعثراً وقد تدلت خصلة منه على جبينه. وجاهدت فاليسا كي تمنع رغبة راودتها بأن تذهب اليه وترفع عن عينيه هذه الخصلة الشعرية. كانت الفكرة مضحكة. فماذا سيقول اذا ما تقدمت فعلاً؟

«اما زلت متعبة؟».

نظرت الى جبينه حيث ظهرت حبيبات من العرق. كان جو الغرفة دافئاً، واحست فاليسا بحاجة الى كأس من الماء البارد، لكنها لم تتجرأ على الطلب. واجابته قائلة:

«اشعر بشيء من التعب، لكن لا شيء مهم».

ابتسم كال بهدوء، وقال:

«يجب ان لا تجهدي نفسك. لا فائدة ترجى من التدريب اذا كانت عضلاتك لا تستجيب. فالمسألة تحتاج الى وقت».

«انا متأكدة من ذلك، فانت مدرب ممتاز».

لم تكن تنوي اطلاق هذا التعبير، لكن الكلام افلت قبل ان تفكر فيه.

«شكراً لك، فلقد بدأت التدريب باكراً».

«انت تحمل الحزام الأسود».

لم تكن تنتظر جواباً لأنه كان موجوداً على خصره.

«انا احمل الحزام الأسود، اما السيد ماكلين فيحمل الحزام البني... انه بارع في اللعبة بالنسبة الى سنه».

«الهذا السبب انت هنا؟ اقصد كي تدربه؟».

هز رأسه بالنفي وقال:

«لا ابداً. انا ضيف هنا فلقد كان صديقاً حميماً للسيد ماكلين، ولذلك انتهزت الفرصة لأقوم ببعض الكتابة...».

تردد قبل الكلمة الاخيرة ثم تابع:

«كتابة بعض الأشياء الخاصة. وايضاً جولات تدريبية في الجيدو».

ادارت فاليسا رأسها الى ناحية اخرى من الغرفة كي تخفي عن كال تعابير وجهها التي قد تكشف افكارها... لكنها احست انه يقرأ الافكار ايضاً. احست باصابعه على ذقنها تعيد وجهها الى مكانه، ونظر الى عينيها مباشرة وهو يقول:

«هيا، قولي ما تفكرين فيه».

«اقول ماذا؟».

«الفكرة التي اخفيتها... من اني مجرد شخص كسول يقضي وقته متسكعاً هنا».

«لا تكن سخيفاً».

حاولت ان تخرج صوتها واثقاً وقوياً. آخر شيء تريده الآن الدخول في جدال معه. ليس الآن، فهما في حالة جيدة ومن الصعب افساد كل شيء.

«لا الومك اذا فكرت بتلك الطريقة». وفاجأها بقوله هذا. «وانا سأفكر بالطريقة نفسها لو كنت مكانك. لكني فعلاً اشتغل في اعداد كتاب».

«رواية؟».

ندمت لأنها سألت مرة اخرى. فبقدر ما تبتعد عن تفاصيل حياته الخاصة بقدر ما تمتنع من العودة الى طرح الاسئلة المحرجة. وهو الشيء الذي لا تريده مطلقاً. ولكن السؤال كان ثابتاً.

«ليس رواية، انه كتاب عن الرحلات. لقد عدت لتوي من جولة اوروبية واسعة، واريد ان اكتب انطباعاتي عنها».

والتفت بوضع علامة تعجب على وجهها وقررت ان تعود الى التدريب بسرعة. فالشيء الوحيد الذي تفكر فيه حالياً هو ابعاده عن التساؤل حول سبب وجودها في دينستون هاوس. قالت:

«هل يمكن ان نعود الى التدريب؟».

«بالطبع. الآن وقد تعلمت السقطة الدفاعية – وبشكل ممتاز بالنسبة

لشخص مبتدئ. - فستقوم ببعض الحركات المشتركة. سوف أريك...»
لكنه توقف عندما لاحظ خوفها من هذه العبارة وأوضح قائلاً: «ليس بالمعنى الكامل، إذ سأوقف الحركة قبل الوصول الى الأرض. إنها استمرار لما كنت اليوم به منفردة».

امسك كل واحد منهما كم الآخر وهما يواجهان بعضهما البعض.

«احكمي قبضتك على كمي مهما حدث، وثقي بي».

وفجأة، احست بقبضته تشتد في حين بدأ جسمه يتحرك. رأته ينحني على أطراف أصابعه، ولم تشعر الأرض فاقدة التوازن. ثم دخل كتف كال تحت ذراعها وازداد جسمه انحناء. وبحركة واحدة منه وجدت نفسها مرمية من فوق كتفه.

وفي لحظة رعب ادركت انها فقدت اتصالها بالأرض، لكن دفعة لطيفة منه أكملت الحركة ونقلتها الى الفرشة. وبدون ان تدري نقلت الساق الأمامية، واصطدمت بالأرض دون أية صعوبات. وعندما نهضت، رأت كال يبتسم بعمق. كان شعورها مزيجاً من الاعجاب والارتياح والضيق. لقد احست، رغم انه تصرف معها بلامبالاة، بشيء خاص في لمساته...
آه كم كان قوياً في حركته.

«مرة اخرى؟ لم تكن الحركة سيئة على الاطلاق».

تنفست نفساً عميقاً وقالت:

«لم تكن سيئة. لقد شعرت اني سأطير».

«قلت لك ان تثقي بي». واضاف بلهجة هادئة «ألا اظنك تعتقدين بأنني سأتركك تقعين بالفعل؟».

«لست ادري ما يمكن ان اعتقد بشأنك».

مرة اخرى ندمت لأن لسانها سبق عقلها. لقد فات الأوان، اذ تغيرت تعابير وجهه قليلاً، ثم ابتسم:

«اعرف ذلك فالشعور متبادل. انا ايضاً لا ادري ما اعتقد بشأنك».

ارادت ان تبتعد عنه على الفور. وضعت يدها على جبينها وقالت:

«كم مضى على وجودنا هنا؟».

«حوالي الساعة. لماذا؟ هل اتعبتك؟».

كان يراقبها بتمعن، وقد بدأ جو التوتر يهيمن مجدداً على الغرفة. خافت

فانيسا من الوضع وارادت ان تهرب منه بسرعة:

«ان قدمي متعبتان قليلاً».

اعترفت بدون الحاجة الى الكذب، فالتعب قد حل بها فعلاً.

«اذن سنتوقف. لقد طلبت منك ان تبلغيني متى تعبت، هل سنتابع الدروس غداً. عندها ستكون الأمور افضل. وستطيعين تعلم الحركات اسرع بعد تمارين اليوم».

تذكرت فانيسا بطريقة تخرجها من هذه الورطة. ثم ادركت ان هناك متسعاً من الوقت لتفكر في اعذار اذا وجدت ذلك ضرورياً. وكان كال متعباً الى حد ما فلم يلحظ ترددها في الاجابة.

«حسناً، الموعد غداً سيكون ممتازاً».

«بعد الظهر، حوالي الثالثة؟».

«موافقة. يجب ان اذهب الآن. سأبدل ملابسي في غرفتي. وسأعيد لك البزة فيما بعد».

اجابها:

«احتفظي بها للغد، فستحتاجين اليها كثيراً».

«شكراً على الدرس!»

نطقت هذه العبارة وهي تدخل الى غرفة تغيير الملابس لتأخذ معطفها. وانتظرت حتى اختفى في الغرفة الثانية، ثم اطلقت ساقيها هرباً الى غرفتها.

لم يخبرها احد ان جيل ووالدتها ستكونان على العشاء تلك الليلة، ولذلك احست بانها خدعت عندما دخلت غرفة الطعام ووجدتهما مع كال وجدها وهم يتحادثون ويضحكون. كان كال منشغلاً في حديث هامس مع جيل، بينما جدها يضحك لعبارات اطلقتها السيدة ماكري. ترددت فانيسا في الدخول كي لا تحطم ما اعتبرته جواً متكاملاً، وفكرت في العودة من حيث اتت. لكنها تأخرت، لأن كال سمعها، فاستدار قائلاً: «ها هي فانيسا». استدار جدها ايضاً وقال:

«تعالي يا فانيسا، تعالي. لقد تعرفت اليها يا آل على ما اعتقد».

ابتسمت السيدة ماكري ملء فمها وقالت:

«كيف حالك يا عزيزتي؟».

«على احسن ما يرام. شكراً لك يا سيدة ماكري».

ردت فاليسا الضحكة بأحسن منها. فهذه الامرأة ألطف كثيراً من ابنتها. وأسفت لأن ذوق السيدة ماكري في الملابس ضعيف جداً. كان ثوبها الطويل غير مناسب لها، لونه الأصفر الفاقع انعكس على وجهها فزاده ضعفاً وشحوباً. اما جدها فقد كان شديد الاهتمام بهذه الامرأة، وشاهدت فاليسا في عينيه نظرة دافئة وهو ينظر اليها، وفكرت فاليسا في سرها: ولا شك انه يحبها، واحست بشعور غريب لهذه الفكرة. هل كان على علاقة حب مع لاينا ايضاً؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلها تبقى؟ وسرعان ما وجدت نظرتها للاثنين اللذين وقفا بالقرب من النافذة من الصعب ان تفهم علاقتهما. فرجل مثل كال يستطيع ان يخفي كل مشاعره اذا اراد، ولكنه الآن لا يظهر الا الاهتمام الشديد بهذه الفتاة الجريئة. راته يشعل لها سيكارتها، ولاحظت ان يدها لامست يده لثوان وهو يقرب الولاعة من السيكارة. استدارت فاليسا بسرعة وسمعت جدها يقول: «والآن يا فاليسا، حدثينا عن درسك الاول اليوم؟».

احدث السؤال جواً من الصمت في الغرفة. وبدا لفاليسا ان هيثر اصبحت بكل جوارحها. والآن كيف تستطيع الاجابة على السؤال بدون ان تزيد في عناء الشقراء الجميلة هذه؟ كم تمنت لو انها لم تأت ابداً!

«كل شيء كان على ما يرام. شعرت بعد انتهاء الدرس ببعض التعب، لكنه زال بسرعة».

واضافت تقول لنفسها: «ارحموني، دعونا نغير الموضوع برمته».

تساءلت ان ماكري بصوتها الواضح العالي:

«واي درس تقصد يا اندرو؟».

ضحك اندرو ماكلين وهو يقول:

«يعتقد كال ان فاليسا تحتاج الى بعض الدروس في الدفاع عن النفس، لذلك اخذها الى غرفة الرياضة هذا الصباح وعلمها بعض الحركات».

التفتت السيدة ماكري بحدة الى فاليسا التي احست بقلبها يخفق بين اضلعها.

«حقاً؟»

انه شيء ممتع. وتابع الصوت الثائر يقول:

«واخبريني، هل وجدت الامر صعباً، الم تجدي الدروس قاسية عليك؟».

وبدت علامات الاشمئزاز على وجهها عندما طرحت السؤال الأخير.

«انا تعلمت اولا الحركة الدفاعية، فقد كانت سهلة الى حد ما».

عندها لاحظت فاليسا تعابير هيثر، حيث الغضب المكتوم يزأر في العينين الجميلتين. ليس لديها شيء تخسره، فهي لم تباشر الحديث ولذلك فليتحمل الآخرون مسؤولياتهم. فتابعت تقول:

«ثم علمني كال شيئاً مختلفاً تماماً وهو عبارة عن رميي الى الارض بدون الاصطدام بها... كانت الحركة ممتازة».

ولم تعرف لماذا التفتت الى كال وابتسمت له، كما لم تعرف ما الذي دفعها الى هذا الموقف. غداً ستفكر في الأمر، اما الآن فهي لا تهتم ابداً.

هز كال رأسه بدون ان يظهر اي تعبير وقال:

«كانت حركة سهلة لمحاولة. وربما قريباً ستتعلمين الفن الاصعب،

وانك مدرب رائع».

كان الجميع يراقبونها: جدها باهتمام مضبوط، والسيدة ماكري بامتعاض بالغ، وهيثر بعداء سافر... اما كال، فقد بدا وكأنه يستمتع بالموقف كله.

«... وقوي جداً ايضاً».

ابتسمت بعمق وهي تنظر الى هيثر. وفكرت في نفسها: «فلتعتقد ما تشاء حول الدروس والا ما صدقت لوقوفي هنا فان كال سيواجه المتاعب فيما بعد». انها غير مهتمة ابداً. تابعت وهي تنظر الى جدها ولكن الحديث موجه الى هيثر الجميلة:

«فإنه رفعني حتى رماني ثم انزلني بلطف الى الارض، وكل ذلك دون ان يحركني. كان الاحساس عجيباً ورهيباً الى حد ما، ولكنني لم ارتعب».

هز اندرو ماكلين رأسه انفعالاً وقال:

«كم تمنيت لو انني كنت هناك».

ثم تكلمت هيثر بهدوء، لكن فاليسا شعرت بالغضب الكامن في داخلها:

«لم تخبرني يا كال بانك خبير في لعبة الجودو».

«لم اعتقد انك مهتمة بهذه الناحية يا عزيزتي».

كم هو يختلف الآن عن مضرب الجيد والبارد الأعصاب الذي كانه قبل ساعات.

دخلت السيدة بانكس بالطعام المكوّن من السمك المشوي والعجة والبطاطا، فتوجه الجميع الى مقاعدهم. وعدّلت زمرد الفضل. فلماذا كان عليها ان تثير غضب هنتر الى هذا الحد؟ خاصة ان الامسية ما تزال في اولها. قررت ان تذهب الى غرفتها فور انتهاء العشاء. وعندما ابلغت جلدها عن رغبتها في الاستئذان والانصراف وافق على ذلك عن طيب خاطر. وادركت انه لا يريد اية مشاكل باحتمال ان هنتر ووالدتها صديقتان مقربتان، وخاصة الام.

امتلأت نفس فانيسا ببعض مشاعر الحزن وهي تصعد السلالم، ولما وصلت الى غرفتها احست بالوحدة تجتاحها بعمق.. وظلت تسيطر عليها صورة المجموعة التي ما زالت تمضي الليل في الصالون ضاحكة ومسالمة. لقد كانت الغريبة غير المرغوبة بينهم.

لم تستطع ان تقرأ أياً من الكتب التي استعارتها. ولا ان تشاهد برامج التلفاز المرئية. وبعد نصف ساعة من التنقل بين مسلسل تلفازي قديم، وكتاب بوليسي مملّ، رمت الكتاب على السرير بحنق واقفلت الشاشة الصغيرة. ثم تذكرت فجأة الصحف القديمة في المكتبة. يمكن ان تقضي مع هذه الصحف ساعة او اكثر، ثم تذهب بعدها الى النوم بسهولة.

فتحت فانيسا باب غرفتها وتمهلت قليلاً للاستماع الى الاصوات المنبعثة من تحت. الاضواء الخفيفة تنير السلالم والقاعة الكبرى في حين تتردد في الصالون اصداء اصوات وضحكات خافتة. لن يسمعها احد الآن اذا ما نزلت الى المكتبة.. وحتى لو سمعوها، فهذا غير مهم.

اضاءت احدى الثريات في المكتبة وتوجهت بهدوء الى المكان الذي وضعت فيه الصحف. وتساءلت اذا كان الافضل لها ان تحمل الصندوق كله الى غرفتها او تكتفي ببعض الاعداد. ففي هذه المجموعة اشياء كثيرة للقراءة، ولذلك فان بعضها يكفي. ولكن من ناحية اخرى يجب العمل على ترتيبها زمنياً وهذا يعني اخذها كلها. لذلك قررت حمل المجموعة كاملة لتعمل على ترتيبها اولاً ومن ثم تقرأها، فهذا يوفر عليها الوقت في

بعد. لم يكن الصندوق ثقيلاً جداً، ولكنها عندما انحنت لحمله ارتفعت احد الكتب على الارض محدثة صوتاً عالياً.

اضطربت قليلاً، ثم وضعت الصندوق ارضاً كي تلتقط الكتاب وتعيده الى مكانه. وفجأة شع ضوء ساطع على الغرفة فالتفتت لتجد ؟ل واقفاً في الباب. وشعرت كأنها اعتقلت بالجرم المشهود.

سار باتجاهها وهو يبتسم.

«حسناً.. حسناً.. ماذا تفعلين؟».

استعادت فانيسا رباطة جأشها بعد لحظات الاضطراب الاولى وقالت:

«قررت ان احمل الصحف القديمة الى غرفتي للاطلاع عليها.. هذا كل شيء».

كانت قد تجنبت النظر اليه مباشرة وهما في غرفة الطعام، لكنها فعلت الآن. والواقع ان لا خيار لها سوى النظر الى هذا الرجل [illegible] في بدلته السوداء الفاتحة وقميصه الابيض وربطة عنقه السوداء ايضاً. والذي يتناقض تماماً مع ما كان عليه في الصباح. بدا وجهه غامضاً ومظلماً لان الضوء الاساسي كان ينبعث من خلفه. استدارت فانيسا بقلق وانحنت تلتقط الكتاب لتعيده الى الرف.

قال:

«سأحمل لك الصندوق الى غرفتك».

«لا حاجة الى ذلك، فاصدقاؤك سيتساءلون عنك بعد قليل».

لم تقصد ان تثيره بهذا الكلام، لكنها فعلت اذ لاحظت على وجهه ابتسامة غاضبة وهو يتجاوزها نحو الصندوق.

اجابها بجفاء واضح:

«الجو بارد جداً هناك، والفضل في ذلك يعود- بدون شك- الى التفاصيل التي رويتها عن عروس الجبل».

امتزجت في نفس فانيسا احاسيس هي خليط من الشعور بالذنب لانها ورطت كال، وايضاً الشعور بالظلم لانها لم تكن البادئة في الحديث حول الموضوع. استعادت هدوءها وقالت:

«مهما كان الامر، فلم اكن انا التي اثرت الموضوع في الاساس. وعليك ان تتذكر هذا الواقع».

فضرج خداها بالدم وراح صدرها ينتفض بفعل الغضب، وبما لم تنتبه له انتابك لها كانت تبدو جميلة ومثيرة للغاية. والشيء الوحيد الذي خطر على باله وجه هيلز الشجل عند سماعها القصة..

«اعذريني الآن إنها اللحظة المتوحشة».

بدا كأنه مستمتع بغضب فانيسا وهو يحمل صندوق الصحف القديمة. أما فانيسا فلم تكن راغبة في مواصلة الحديث، لذلك استدارت خارجة من المكتبة، وتركته مع الصندوق... فإذا أراد حمله فليكن، و[illegible] ولا هو والصحف.

مرحت واكفة طول الطريق إلى غرفتها، وعندما وصلتها انتهات تستمع لوقع خطواته. الأكيد أنه لن يتأثر، سيضع الصندوق أرضاً ويهز كتفيه العريضتين ويقول:

«[illegible] أبت فعلاً...» ثم يعود إلى صديقته التي تنتظره.

«ولك أن تبدي مني مرة ثانية».

دخل الغرفة وراءها وأغلق الباب بقدمه. وجه إليها النظرة الباردة نفسها ثم وضع الصندوق على الكرسي وقال:

«هل تحرجين من الناس دائماً عندما يحمى وطيس النقاش؟».

التمعت عينا فانيسا غضباً وهي تقول:

«أنا أهرب؟ لا شك أنك تمزح. أي نقاش تتحدث عنه؟ لقد قلت لك برسالتي».

«رواية متوازنة بسيطة حول التمارين الصباحية، أجل، سمعت ذلك وشاهدت وجهك. كنت تستمتعين برنة الضحك، أليس كذلك؟».

سارت فانيسا نحو الباب لتفتحه وبدأت تقول:

«هل تسمح؟».

لكنه أوقفها وأعادها إلى مكانها بسرعة.

«كلا. لن أغادر الغرفة، ليس قبل أن أكون مستعداً».

أمسك ذراعيها، ومع أن قبضته لم تكن قوية إلا أنها كانت حازمة بما فيه الكفاية.

«هل تستعمل أسلوب القوة الجسدية دائماً مع النساء اللواتي لا يوافقنك آراءك؟ لا بد أنك ربحت العديد من المناقشات بهذا الأسلوب».

ثم سحبت يدها بقوة وقالت:

«دعني لوحدي فوراً».

«ولن أتركك. على كل، النساء لسن مثلك كلهن، أنت تملكين طباعاً حادة جداً، تذكرني بشخص...».

تجمدت في مكانها. اتضح الآن السبب الذي جاء من أجله، وسيتكلم بالكلمة في أية لحظة...

عليها أن تفعل أي شيء، لتغيير الموضوع. أي شيء، لإبعاده عن الموضوع السري الذي تكتمه، فجأة صرخت آه، ولاحت الدموع في عينيها. هذه الدموع التي تستطيع تحريكها ساعة تشاء:

«آه لك أؤلمني... اترك معصمي...».

أطلق سراحها فوراً، ثم رفع ذقنها إلى الأعلى ونظر في عينيها بحدة:

«يا إلهي... وتعرفين فن التمثيل أيضاً».

«لست أدري... لست أدري ما تقصده».

بدأت تحدد دورها بسهولة، ما دام قد ابتعد عن الموضوع الأساسي.

أجاب ضاحكاً:

«أنت تعرفين تماماً، يا لك من امرأة». ثم ضربها بلطف على أنفها وأضاف «وداعاً يا سارة برنار، كما تعرفين أنا لا أحتمل منظر الدموع، لذلك سأعود إلى تحت حيث الجو أكثر برودة من هنا. ولا شك أنني أستطيع التعبير عن نفسي بسهولة هناك بدون المشاكل هنا».

وابتسم لها بعمق قبل أن يستدير خارجاً.

وقفت فانيسا في مكانها تراقب الباب المغلق قبل أن تتحرك باتجاه صندوق الصحف. ترددت قليلاً، ثم حملته إلى طاولة صغيرة تحت النافذة وبدأت بفرز الصحف.

أخرجت حوالى مئتي صحيفة من الصندوق، بعضها كان في حالة رثة وقد اصفرّت أوراقه تماماً، والبعض الآخر ما زال في حالة جيدة. المجموعة تحتاج إلى عمل متواصل وطويل، ولكن فانيسا تدرك بأنها ستجد فيها الثروة الأكثر أهمية مما في المكتب. رفعت حزمة من أعداد جريدة الثاير تعود إلى العام ١٨٨٤ ووضعتها على الطاولة. كانت الأوراق صفراء مهلهلة وقد علاها الغبار، وتساءلت فانيسا عن المدة التي ظلت فيها هذه الصحف

مهملة منسية في الصندوق. وفجأة اكتشفت شيئاً مهماً.
الورقتان اللتان وجدتهما كانتا في قعر الصندوق تقريباً. رفعتهما فاليسا بفضول الأمر بدون ان تعرف مضمونهما وكانت على وشك ان تضعهما جانباً عندما لاحظت الاسم المكتوب على اعلى كل ورقة.. فتوقفت..

تردد اسم اندرو ماكلين ما لا يقل عن ثلاثين مرة بالخط نفسه، وكأن شخصاً ما كان يحاول التمرن على تقليد توقيع جدها. قربت فاليسا الورقة من الضوء لتمعن في التواقيع فاكتشفت الورقة الثانية بما تحتويه من كتابة. كانت عبارة عما يشبه رسالة باستثناء كون الكتابة تبدأ من منتصف الورقة.

لم تكن فاليسا راغبة في قراءة رسائل الآخرين لكن شيئاً ما دفعها لذلك، فوجدت نفسها تمضي قدماً في القراءة.

الرسالة المكتوبة على الورق كانت على الشكل التالي:

«انا الموقع ادناه، اخول حامل الرسالة جون ماكلين قبض الشيك المرفق، وايضاً سحب محتويات صندوق الودائع الخاص بي والذي يحمل الرقم...».

لم تعد قادرة على القراءة اكثر. فقد ادركت فوراً السبب الذي من اجله تكرر توقيع جدها على الورقة الثانية. قربت الورقتين الى بعضهما. لاحظت ان الرسالة ممهورة بتوقيع هو نسخة مطابقة للتواقيع الموجودة على الورقة الأولى. لا مجال للشك الآن هناك شخص ما تمرّن على تقليد توقيع اندرو ماكلين حتى اتقنه، ثم كتب رسالة التوكيل والشيك طبعاً... ولسبب غير معروف وجدت الورقتان طريقهما الى الصندوق.. ولكن من هو الفاعل؟ ليس هناك سوى جواب واحد. ففاليسا لا تعرف الا شخصاً واحداً يدعى جون ماكلين... انه ابوها...

خرجت فاليسا الى نزهة صباحية فور الانتهاء من الاستحمام وارتداء ملابسها. موعد الفطور بعد الساعة التاسعة كما كان يوم الاحد الماضي، لكنها لم تكن تشعر بشهية للأكل. فالاكتشاف الذي وقعت عليه مساء امس اثقل عليها نفسها وجسدها ولم يترك مجالاً للطعام او الشراب. لا تريد ان تأكل شيئاً. وتشعر الآن وكأنها لن تأكل مرة اخرى في حياتها. انطلقت من الباب الامامي بعد ان ارتدت معطفاً ثقيلاً، ذلك ان الهواء كان بارداً ومشبعاً بالرطوبة، والضباب يخيم على البساتين والغابات. استدارت يساراً

وسارت في الممر الطويل مطأطأة الرأس واضعة يديها عميقاً في جيبي معطفها، بدون ان تنتبه الى الرجل الذي كان يراقبها من احدى نوافذ البيت.

ولأنها لم تنم امس الا نوماً متقطعاً قلقاً، فقد اظهرت الظلال الداكنة التي تركها السهر تحت عينيها بأن وجهها اكثر من المعتاد. تفرّع الممر الذي تسير عليه الى اتجاهين. اختارت الاتجاه الذي يمر خلف المنزل ثم يمتد مسافة ميل تقريباً. وسارت دون ان تعي ما يدور حولها، وبدون ان تعرف الى اين.

لم تعد فاليسا ترى سوى ورقة تحمل تواقيع مزورة- الأرجح من قبل ابيها- وهذا ما يجعله مجرماً، اذا لم يكن في الواقع فعلى الاقل بالنية. هل مضى والدها قدماً في عمليته؟ وهل نجح في التزوير ام اكتشفوه؟ لن تجيبها على سؤال احد، ابداً. وادركت الآن ان مجيئها الى ديمسون هاوس، مع كل الاسباب المرجحة لذلك، قد انهار وتلف. من يستطيع القول الآن ان والدها كان على حق في كل ما اخبرها به من ان جدها كان قاسياً وجاحداً بحق ابنه الوحيد؟ ربما كانت له اسبابه المعقولة؟ لقد صدقت فاليسا كل القصص التي حدثها بها والدها عن معاملة اندرو ماكلين السيئة، عن بخله في المال، عن رفضه السماح له باختيار شريكة حياته، وعن اشياء اخرى كثيرة.. بحيث اضطر اخيراً الى ترك المنزل وتأسيس حياة خاصة به. لكنه لم يشر ابداً الى التواقيع المزورة، وربما ترك اشياء كثيرة اخرى دون ان يبوح بها.. وتذكرت فاليسا امثال والدها عن القاهرة وكيف كان يطلب منها اختيار اسماء احصنة السباق. كان الامر طريفاً وهي طفلة، طفلة تحب والدها حتى الجنون.. لكن هذه الطفلة لم تكن قادرة على فهم دموع امها او نقاش والديها حول المال. وفجأة طفت على ذهنها صورة واضحة تماماً، مثل صورة نصف مكتملة جاءت الاجزاء الناقصة لترسم معالمها الجلية. تابعت السير وكأنها تحاول الهرب من سيل الذكريات المزعجة.. ثم جاء صوت مفاجئ:

«صباح الخير. اليس الوقت مبكراً على النزهات الصباحية؟».

رفعت رأسها لتجد لوري واقفاً امامها، والى يديه بعض الآنية الريفية الرمادية.

«صباح النور. كنت بحاجة الى نزهة صباحية».

سألها لوري باهتمام:

«هل انت على ما يرام؟».

عاد القلق الى نفسها خوفاً من ان يكتشف فيها شيئاً غريباً.

«كل شيء طبيعي، فماذا تقصد بسؤالك؟».

«وجهك شاحب اللون، ويؤسفني ان اقول انك كمن خرج لتوه من صدمة عنيفة. فاذا كنت تشعرين بالانزعاج، فانا على استعداد للبقاء معك قليلاً».

جاهدت فاليسا كي تبتسم له:

«شكراً يا لوري، لا ضرورة لذلك فسوف اعود الى البيت بعد قليل، على فكرة، ماذا يوجد في نهاية هذا الممر؟».

«لا شيء، مجرد بحيرة صغيرة، وبعض الاشجار وبيت ريفي مهجور، فالممر يستمر للداخل تقريباً ثم يعود الى البيت الرئيسي من الجهة الاخرى. هل تريدين ان آخذك اليه؟».

«لا، شكراً لك».

احست بدوخة خفيفة عندما هزت رأسها بالنفي. مد لوري ذراعه لها وقال:

«تعالي معي، فليس في البيت غير امي وهي ستعد لك فنجاناً من الشاي».

اغراء الشاي كان كبيراً، لكنها لم تكن راغبة في الوقت الحالي بمقابلة اي انسان. تريد فقط ان تكون لوحدها وتفكر بكل شيء... وهي غير مستعدة لمحادثة احد.

«شكراً يا لوري، ساعود الآن الى البيت، فارجوك ان لا ترافقني... صدقني انا بحالة جيدة».

«حسناً، انا ذاهب بالاتجاه نفسه في اي حال، فهيا بنا».

لا مجال الآن للهرب منه، والافضل ان تلجأ الى غرفتها باسرع ما يمكن.

ابتسمت بعمق هذه المرة وقالت:

«حسناً يا لوري. لكني اؤكد لك بانني لن اسقط خلال المشوار».

رد بابتسامة اكبر:

«هذا يدعو للأسف، فسأكون مسروراً اذا حملتك طول الطريق الى البيت».

سارا لعدة خطوات وسط صمت مخجل، في حين كان الضباب يذوب تدريجياً بفعل اشعة الشمس التي بدأت تطل من الشرق واعدة بيوم دافئ جميل.

قال لها وهما يقتربان من البيت:

«سآتي الى المكتبة غداً صباحاً».

«حسناً جداً».

لم تأتِ على ذكر الصحف القديمة الا انها سألته في حالة ملاحظته اختفاء الصندوق. لقد اخفت الورقتين في قعر احد ادراج طاولة الزينة، عليها تجد تفسيراً بريئاً... وسيكون الامر مستحيلاً اذا ما اكتشفها. ومع انها تعرف تماماً ان لا امل يرجى الا انها اصرت على التمسك بالسراب.

«فاليسا؟».

«نعم؟».

«قلت، هل انت على ما يرام؟».

«طبعاً... طبعاً... انا آسفة. شكراً لك يا لوري، اراك غداً».

كانا قد وصلا الى مدخل البيت، فاستدار لوري مبتعداً. قالت فاليسا باستغراب:

«الن تدخل الى البيت؟».

«لا. كنت اريد الاطمئنان عليك فقط. هيا ادخلي وتناولي الفطار شهياً، وستشعرين على الفور بالتحسن».

لمست ذراعه اعراباً عن الشكر وقالت:

«انا مدينة لك يا لوري. فشكراً جزيلاً على كل شيء».

استدارت ودخلت البيت مسرعة. وما ان وطأت قدمها عتبة البيت حتى اجتاحها شعور بالحزن العميق. توقفت للحظة كي تسيطر على احاسيسها وتحاول تناسي كل ما حدث. ولكنها لم تستطع. فهذا بيت ابيها وبيت جدها، ولا فائدة من تناسي الماضي واحداثه. انزلقت بعض الدموع التي انحدرت على خديها واسرعت باتجاه غرفتها.

استلقت على سريرها وتركت لدموعها العنان، فأحست بساعة حارة ومؤلمة... ثم دفنت وجهها في المخدة وانفجرت منتحبة.

ولم تسمع قرع الباب، كما لم تسمع الصوت الذي ناداها. وظلت على حالها حتى فتح الباب ودخل أندرو ماكلين الغرفة. نهضت وقد انعقد لسانها وملكتها الدهشة، ولم تدرك للوهلة الأولى، بسبب الدموع التي منعتها من الرؤية الواضحة، ما إذا كان هذا جدها أو كال.

ثم جاءه صوت جدها:

«ماذا بك يا ابنتي العزيزة؟».

لم تحر فانيسا جواباً عندما اقترب منها. ضاعت كل الكلمات من ذهنها. فاكتفت بهز رأسها بلا وعي.

وضع ذراعه على كتفها وقال:

«ما الأمر؟ هل فعلت شيئاً أساء إليك؟ يحز النفس يا فانيسا أن أرى هذا النحيب. فأنا لا أستطيع أن أراك باكية! أرجوك أعطني».

وتدريجياً أخذ روعها يهدأ. فاستطاعت من بين شهقات البكاء أن تجيب:

«أنا آسفة! لا، لم يصدر عنكم ما أساء إليّ. لا أستطيع أن أشرح السبب. المسألة خاصة جداً».

جلس على المقعد قبالتها وقال:

«في هذه الحالة لن أكرر السؤال. لكن أرجوك، دعيني أساعدك إذا أمكن. لم تتناولي افطارك بعد، أليس كذلك؟».

«كلا».

«إذن ستحضر لك السيدة باتكس بعض الطعام. وأصرّ بعد ذلك على أن تنزلي إلى الصالة فنتحدث قليلاً حول فنجان القهوة».

نظرت إليه فانيسا وقالت:

«ولكنك يجب أن تذهب إلى أشغالك هذا الصباح!».

ابتسم وقال:

«يمكنني تأجيل أعمالي هذا الأسبوع. فلن أغادر البيت وأتركك على هذه الحالة دون أن أعرف السبب. كما أني أرغب في سؤال كال لأنه مشغول في الكتابة... وإلى جانب ذلك».

وتوقف عن الكلام فجأة.

ضحك قائلاً:

«منذ؟».

ابتسم متابعاً:

«والذي أعرفه أنكما اختلفتما البارحة في نقاشكما».

قاطعته بنبرة احتجاج وانكار، فضحك قائلاً:

«لا تغضبي يا عزيزتي، أنا أفهم الوضع تماماً. كان من الطبيعي أن تصطدما ببعضكما البعض. فكال رجل عنادي جداً، أما أنت فبطباعك تلك امرأة ذات إرادة قوية. أنا أحب مثل هذه المرأة. وأعتقد أن دروس الجيلو ستعطي مفعولاً قوياً عندما تقطعين مرحلة منها».

وعلى الرغم من كل شيء، ابتسمت فانيسا لكلام جدها:

«أنا آسفة، لم أدرك...».

قاطعها واقفاً:

«لا تهتمي أبداً. أنا أتمتع بوجود الشباب حولي. والآن، أقترح عليك أن تغسلي وجهك بينما أطلب من السيدة باتكس اعداد فطورك... وبعد الطعام أراك في الصالون».

غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بهدوء.

ملأت فانيسا الحوض بالماء البارد وغمست وجهها فيه مع ابقاء عينيها مفتوحتين. إنها خدعة تعلمتها منذ سنوات لترطيب العينين وإزالة الاحمرار منهما. وبينما هي تنشف وجهها سمعت السيدة باتكس على الباب، فدعتها إلى الدخول.

الافطار الذي جاءت به السيدة باتكس يتكوّن من بعض الخبز المحمص إلى جانب البيض المقلي مع الفطر ثم الزبدة والعسل... وطبعاً فنجان قهوة.

قالت فانيسا:

«شكراً جزيلاً لك يا سيدة باتكس».

ردت مديرة المنزل وهي تسعل:

«لقد طلب مني ذلك، قال إنك لست على ما يرام».

«لم أكن مرتاحة. لكني سأشعر بالتحسن عندما أتناول هذا الافطار الشهي».

هزت السيدة بالكس رأسها وكانت غير مقتنعة بما قالته فاليسا.
- حسناً سأتركك لن أزعجك الآن.

وذهبت. تنهدت فاليسا وتساءلت عما اذا كانت ستحترق تحفظ هذه المرأة في يوم من الأيام. لكنها لن تستطيع، لأنها غير راغبة هنا تصويلاً خاصة بعد اكتشافها الليلة الماضية. فكل مخطط الأحلام التي رسمتها منذ مجدها تلاشت، حطمتها حقيقة لورنزو القاطعة، واخذت تفكر بالوقت المناسب لمغادرة البيت. صحيح ان هناك عملاً كثيراً في المكتبة لكنها لا تستطيع تحمل البقاء هنا طيلة هذا الوقت محتفظة لنفسها بالسر الذي اتضح لها. كما انها لا تستطيع مصارحته بمعرفتها بالحقيقة، كيف تجرؤ على ذلك؟ لقد استطاع تجاوز آلام السنوات الماضية، فهل يجب عليها ان تفتح له الجراح المندملة؟ من الأفضل ان تنسحب بهدوء... ولا تعود ابداً.

بعد فترة من الزمن سيخف شوقه لحفيدته المجهولة. فكرت ان تخبره عن حقيقتها، لكنها اسقطت الفكرة فوراً. اذ كيف يمكن ان تعترف بالخدعة التي خططت لها؟ ربما قررت ان تخبره حقيقة شخصيتها قبل ان تخرج من حياته مرة اخرى والى الأبد؟ اما بعد ان تعرفت اليه فلن تتمكن من اخباره. ليس الآن. فقد فات الأوان... فات الأوان نهائياً.

لورنزو يستطيع ان ينجز العمل في المكتبة. ولم لا؟ فهو يعمل بنشاط وقادر على متابعة المهمة. بالاضافة الى ذلك يحب الكتب، خاصة الكتب القديمة، مثله مثل صاحب البيت.

جلست الى الطاولة بعد ان رفعت عنها الكتب والاوراق، وبدأت تقلب في ذهنها طرق الدفع للورنزو بمواصلة العمل بعد ان ترحل. اذ قررت الى المكتبة يوم الاثنين، ورغبت في العمل معها يومياً واضحة كما اتت مقبولة من جميع الطرفين. وهذا سيكون ترتيباً معقولاً ولا يسبب اية ازمات. والمهم في النهاية ان يتم ترتيب وفهرسة الكتب.

وبدأت فاليسا تشعر ببعض التحسن وهي تتناول طعامها. هذا التحسن الطفيف يكفي الآن على الاقل.

لكن مشاعرها عادت اليها في وقت لاحق من النهار عندما نزلت الى غرفة الرياضة. شاركها اندرو مالكين الغداء في حين كان كال خارج البيت. وقد حاول جهده كما لعل طول النهار ان يسليها ويرفه عنها. ابلغها

من بعض ارتباطاته وشجاعته... ورغم كل شيء بدأت تحس بإعجاب بمزايا لطافته. وجدت انه شغوف بعمله، وله مصالح متعددة منتشرة من ايرلندا الى لندن، تدفعه الى السفر كثيراً بين بريطانيا واوروبا. وبعيداً عن شؤون العمل اكتشفت جوانب حساسية مرهفة في طباعه. ومع ان والدها وصف لها جدها بأنه قاسي القلب، الا ان الحقيقة كانت مختلفة.

ذهبت فاليسا الى غرفة الرياضة واحاسيس متضاربة تختلج في نفسها، وتمنت لو تجد كال هنا، لو انه يرتاح في زاوية الحجرة لتطلب منه ان لا يزعج نفسه بذلك. والواقع انها لا تريد ان تمضي وقتاً طويلاً معه، فهذه الحالة قادرة على اختراق افكارها والوقوف على مشاعرها... وهذا ما لا ترغب به الآن.

الصمت يخيم على غرفة الرياضة. عبرت فاليسا باتجاه غرفة تغيير الملابس وهي تنادي: «كال؟» وادركت بعد فوات الأوان انها نادته باسمه الأول، فعضت شفتها السفلى ندماً. ومع ذلك ليس هناك مجال آخر، فنادته باسم سيد قريني مثير سخريته دون شك.

- سأكون معك خلال دقيقة.

اتى صوته من الداخل. بعد لحظة خرج اليها وعلى وجهه علامة استفهام. فاليسا تعرف ان احداث الصباح تركت آثارها على وجهها بحيث لا يمكن للماكياج ان يخفيها.

قالت وهي تجهد دون جدوى لاخفاء مشاعرها:

- كنت اتساءل اذا كنت هنا. فالمكان كان صامتاً تماماً.

نظر اليها باندهاش، فخشيت ان يكون جدها قد اخبره عن ضيوفها وتخيلها هذا الصباح، لم تكن متأكدة من ذلك، لكنها ظنت ان لا يكون جدها قد فعل.

اجابها بهدوء:

- وانا هنا، فهل انت مستعدة؟

ترددت لحظة قبل ان تقول:

- واعتقد، لن اتأخر في تغيير الملابس كثيراً.

اجابته ودخلت الى الغرفة. ماذا بعد؟ لم يكن لديها خيار. عليها ان تستمر بالرغم من شعورها بالضعف والاعياء.

بعد دقائق كانا في مواجهة بعضهما البعض فوق أرضية الجليد. وسرعان ما ارتاحت فليسا بفعل حركات التحمية التي اداها معاً، بالاضافة الى انه لم يثر اية تساؤلات.

طلب منها ان تكرر الخطة الدفاعية التي تعلمتها أمس عدة مرات، واستغربت كيف انها استطاعت تنفيذها دون صعوبة تذكر، بحيث ان كال نفسه علق على ذلك فيما بعد قائلاً:

«هل تعرفين ان حركاتك طبيعية؟».

التفتت اليه بسرعة متوقعة ان تجد طابع السخرية على شفتيه لكنها وجدت ابتسامة خفية، والمح يقول:

«اني اعني ما اقول. فانت مرنة العود ومشوقة القوام».

ردت بابتسامة عابرة:

«شكراً لك».

في كل حال، انها لم تنم ليلة وتخلص جانباً من تساؤلاته المحيرة المستمرة، وكذلك من خوفها عندما يكون موجوداً.

وبعد [illegible] سألت:

«هل [illegible]؟»

[illegible] السؤال [illegible] فقالت [illegible]:

«[illegible] لكي [illegible]».

«اني [illegible]، ويجب ان لا تواصلي التدريب اذا كنت متعبة او منزعجة من شيء ما».

ثم سألها دون مقدمات:

«هل ازعجك لوري؟»

رفعت فليسا رأسها باتجاهه دون ان تفهم ما الذي قصده بالسؤال:

«لوري؟ انا لا افهم ما تقول؟»

«لقد ذهبت هنا الدليل [illegible]، وعندما عدت كنت في حالة يرثى لها».

هزت رأسها وقد غابت الدنيا عن نظرها:

«لا ابداً لم يكن هو. كان...»

ثم توقفت ونظرت اليه قائلة:

«ارجوك، لا اريد الخوض في هذا الموضوع».

ودون ان تشعر تراجعت عدة خطوات من كال الذي لاحظ الامر فوراً.

سألها بقسوة:

«لا تقولي انني اخيفك؟»

«لا... فقط عندما...»

توقفت مرة اخرى وقد تسللت مشاعر الضيق مرة اخرى الى صدرها فكادت ان تفقد انفاسها. قالت:

«لا. ارجوك دعنا نواصل التمرين».

قال:

«لا استطيع تمرينك وانت في هذه الحالة. ليس وانت خائفة مني بشكل واضح».

انفجرت في وجهه صائحة:

«لست خائفة منك. ليس عندما تدربني، فانت رائع عندئذ. لكن عندما تبدأ بطرح اسئلتك علي... فاني لا اريد...»

واختفى صوتها في حنجرتها. لم يعد هناك مجال، فهو لن يتركها الآن. ليس قبل ان تخبره بالحقيقة كلها، او لا اصح قبل ان يجبرها على الاعتراف بالحقيقة. لكن [illegible] حدقت [illegible] تراجعت [illegible] طريقة تجعل [illegible] كان مع [illegible].

قال:

«ايتها الحمقاء، ما الامر؟»

«ابتعد عني. اريد ان اغادر المكان فوراً» ثم همست «وارجوك دعني».

«ليس قبل ان تخبريني سبب خوفك. انا لا استطيع ان اتركك على هذه الحالة».

«لا اريد ان احدثك اليك. ابتعد عني».

وحاولت يائسة أن تبعده عن الباب، فكانت كمن يناطح جداراً. لم يتحرك قيد انملة، لكنه وضع ذراعه حولها كي يسندها.

«لن ابتعد. والآن اخبريني ما القصة. لقد امضيت النهار كله في البكاء والنحيب، أليس كذلك؟»

لم تجبه. حدقت في عينيه مباشرة، لكنها اضطرت الى تحويل نظرها بفعل تأثير نظراته الحادة. الافضل ان لا تنظر اليه، وهي بالتالي لن ترسلها الى ما لا نهاية. ليست مضطرة للكلام. انه لا يستطيع اجبارها على ذلك. لكن

التوتر اخذ يتزايد خاصة انهما كانا ملتصقين في ذلك المدخل الضيق، فحاولت الافلات من قبضته.

طالبها آمراً:

«ألم تفضي جارك بإبكائه؟ هيا اخبريني».

«اجل... اجل... لقد بكيت طوال النهار» ثم ارتدت اليه قائلة «والآن ما الذي ستفعله حول ذلك؟ ماذا يعنيك الامر في اي حال؟ لا شيء». انت مجرد انسان فضولي... دعني اذهب فوراً. لا يحق لك ان تمسكني رغماً عن ارادتي... انني اكرهك... اكرهك».

«لا... انت لا تكرهينني. وانا فضولي جداً لان بكاءك يتعلق بسبب وجودك في هذا البيت، أليس كذلك؟».

كيف عرف هذا الامر؟ لم تستطع ان تخفي دهشتها لانه لامس الحقيقة المجردة، وفي اية لحظة الآن يمكن ان... استجمعت اطراف شجاعتها المتناثرة وحررت نفسها من قبضته، ثم استدارت وحدقت بحذائها وملابسها المبلولة قائلة:

«الآن سأغيّر ملابسي، هل تسمح؟ الآن».

سألها بنعومة:

«وما هو اسمك الحقيقي؟».

«فاليسا كوليز... سبق أن قلت لك ذلك».

كان الجواب سريعاً، ولكن ليس بما فيه الكفاية.

«... وسميت ايضاً، أتذكرين انك اخبرتني ذلك؟ لكني لا اصدقك!».

«لا يهمني اذا صدقت او لم تصدق. فاذهب [illegible] لا اريدك ان تلمسني ثانية. انت حيوان ضخم فقط، وانا اكرهك».

خيمت لحظة من الصمت المتوتر على الاثنين اللذين وقفا في مواجهة بعضهما البعض دون ان يتفوه اي منهما بكلمة. وفجأة استدار كال خارجاً واغلق الباب خلفه، اضطرت فاليسا التي اصبحت داخل الغرفة وحدها الى الجلوس لان قدميها ما عادتا تحملانها. من الواضح انه لم يستسلم بعد، ولذلك عليها مغادرة قسنتون هاوس بأسرع ما يمكن. فلو طالت مدة بقائها في البيت، فان كال سيجد طريقة او اخرى لاكتشاف سرها الدفين.

٧ - حان موعد الرحيل

من الواضح الآن ان ما فقدته في نفسها سيظل عالقاً يوماً بعد يوم، عندما دخلت الى المكتبة في الصباح التالي لاستئناف عملها، عاودها الشعور بالذنب. لعل التواقيع المزورة جرت هنا ساعة بعد ساعة، وفي لحظة عاجلة دس ابوها الاوراق بين الصحف لان احداً دخل عليه الغرفة فجأة... ثم نسيها. وفجأة عادت الى ذاكرتها اشياء قالها جدها وتوقع ظهورها. تذكرت كيف احتقن وجهه بالخجل عندما جاء ذكر الصحف. لربما عاد الى الماضي حين اكتشف الحقيقة.

ارتدت الرداء الواقي وبدأت في اعداد مجموعة من الكتب لتهيئ فهرستها. كان قلبها مثقلاً بالهموم والاحزان. وبالاضافة الى ذلك هناك مهمة خاصة مع توري عندما يأتي الى المكتبة.

حانت فرصتها عندما كانا يحتسيان القهوة عند الساعة الحادية عشرة. كان قد وضع كتاباً قديماً جداً على الطاولة وتأمله بحسرة، فسألته فوراً:

«انت تحب هذه الكتب القديمة، أليس كذلك؟».

نظر اليها وشيء من الدهشة يملأ وجهه:

«اعتقد ذلك. لكنني لم افكر فيها من قبل. لماذا تسألين عن الموضوع؟».

«فقط استغربت كيف انك لم تتقدم للعمل في المكتبة عندما عرفت ان السيد ماكاي يبحث عن شخص لذلك».

«والآن؟».

هز رأسه بالنفي وقال:

«لم افكر في الأمر ابداً. بالاضافة الى انني اعمل في الحدائق. على كلٍ، عمل المكتبة ليس من اختصاص الرجال».

قاومت فاليا ضحكة كادت ان تفلت منها عندما قال الجملة الأخيرة. عليها ان تكون حذرة تماماً الآن.

«بالطبع من اختصاص الرجال». وتابعت بسرعة وصدق، «هذا العمل يتطلب الذكاء الحاد والوعي العميق والعناية ايضاً. انني اعرف كثيرين من الرجال في هذه المهنة. وانت بارع فيها جداً».

حدق بها وكأنه يفكر في الموضوع:

«هل هذا صحيح؟ كنت اقصد مساعدتك فقط، ولم افكر...».

«ما كنت لأستطيع العمل دون مساعدتك».

لم تكن كاذبة عندما قالت هذه الجملة. والآن اتت المرحلة الحرجة.

«لنفترض يا لوري - مجرد افتراض - انني لم استطع متابعة العمل لسبب من الأسباب، فهل يمكنك مواصلته؟».

وضع فنجان القهوة على الطاولة بهدوء ونظر اليها بحدة وغضب.

«حسناً، هيا اخبريني الحقيقة!».

«لا شيء.. لا شيء».

قاطعها بسرعة:

«دعك من هذه الادعاءات».

هذه اول مرة يخاطبها فيها بهذا الشكل، وقد صدمها ذلك:

«اني متأكد من ان الملعون كال غرين هو المسؤول. اخبريني ماذا فعل؟».

شعرت بالارتياح لان تفكيره ذهب في هذا الاتجاه.

غريب كيف تجري الأمور. في البدء اتهم كال لوري، والآن لوري يتهم كال.

«كلا يا لوري. ليس الأمر كما تظن. انا...».

«اسمعي جيداً، كنت امس على حافة الانفجار بكية. وانا لست غبياً بحيث لا ادرك الحقائق».

«لم اقصد ذلك ابداً».

لامست ذراعه بيدها وقالت:

«لقد تلقيت البارحة رسالة من... من قريب لي، وهذا ما ازعجني. اؤكد لك ان الأمر لا يتعلق به. كل ما في الأمر انني لست متأكدة من استمراري هنا طويلاً ولا اريد ان اترك... السيد ماكلين...» وكادت كلمة «حبي» ان تفلت منها، لكنها استدركت متابعة: «في مشاكل جديدة. هذا كل ما في الأمر».

حدق لوري بيدها المرتاحة على ذراعه ثم غطاها بيده الأخرى. قال بنعومة:

«من الصعب علي ان ارفض لك طلباً. ولكني لا اريدك ان ترحلي وانت تعرفين ذلك تماماً».

سكت قليلاً ثم اضاف بابتسامة هادئة:

«هل تعنين هذا اذا رفضت ان اقوم بالعمل؟».

هزت رأسها قائلة:

«لا استطيع. سأبقى حوالي اسبوع تقريباً، وبعده سأرحل. ارجوك يا لوري، ما ذكرته لك الآن اريده ان يبقى معك سراً. واعتقد انني استطيع الثقة بك، اليس كذلك؟».

قال لها مؤكداً:

«اعدك بأنني لن اخبر احداً. لكنني سأحاول اقناعك بالعدول عن الفكرة».

ابتسمت له قائلة:

«شكراً لك. اشعر الآن بتحسن كبير. والآن، اليس من الأفضل ان تشرب قهوتك قبل ان تبرد؟».

وعندما استدارت مبتعدة عنه عادت اليها الهموم دفعة واحدة. كان عليها ان لا تأتي ابداً. فالسيد مورتون كان محقاً في تحذيراته من الخدع والحيل والأكاذيب. لو انها استمعت اليه لنجت من كل هذه المأساة.

عملت فاليا خلال اليومين التاليين بجد ونشاط في محاولة لانجاز القسم الأكبر من العمل قبل ان يحين موعد ابلاغ عمتها بأنها راحلة. كل وجبة طعام معه تحولت الى عذاب شديد، زاد فيه كال غرين الذي اخذ يعاملها بتأدب جاف وكأنه يهينها. كان يراقبها وينتظر حتى تقدم على خطوة خاطئة كي يواجهها، فشعرت بأعصابها تكاد تنفجر. وفي احد الأيام كانت

لوحدها في المكتبة عندما دخل كال. وعلى الفور استقرت مكانها وجلست تنتظر ما يمكن أن يحمله لها هذه المرة.
كان هادئاً ولا مبالياً. قال لها:
«آسف لازعاجك، لقد جئت آخذ أحد الكتب».
وسار الى زاوية الكتب الطبية التي ليست من اختصاص فانيسا. راقبته وهي تتمنى ان ينتهي بسرعة ويغادرها كي تعود الى عملها. وصل الى الرف المقصود وسحب احد الكتب بعد ان بحث في المجموعة كلها. سمعت فانيسا تنهيدة ارتياح منه عندما عثر على الكتاب. وفجأة التفت اليها وقال بنبرة هادئة مزعجة:
«يجب ان تحضري لي الى المنزل مجموعة الجرائد من غرفتك عندما تنتهين منها».
وجاهدت فانيسا كي تخفي آثار الصدمة التي اثارها فيها ذكر مجموعة الصحف. فمنذ ان وجدت الورقتين لم اعد قادرة على لمس اي صحيفة بل اعادت المجموعة الى الصندوق ووضعتها في احدى الزوايا بعد ان غطتها بمجلات نسائية عديدة.
«لم... لم انظر اليها بعد بسبب ضيق الوقت».
خفق قلبها بشدة بحيث شعرت به وكأنه يريد الخروج من صدرها. ترى هل اثار موضوع الصحف عمداً؟ هل عرف القصة؟ ثم تابعت:
«يمكنك ان تتركها ساعة تشاء، فسأنظر اليها في وقت لاحق بعد ان انتهي من العمل هنا».
واشارت بيدها الى مجموعات الكتب المصفوفة خلفها.
همهم صامتاً ثم استدار:
«سأذهب واحضرها الآن».
تردد امام الباب قليلاً وقال:
«آسف، الست قادمة معي؟»
«بلى».
وضعت فانيسا البطاقة من يدها واتجهت نحو الباب. عضت شفتها السفلى وهي تفكر، لقد احست توبيخاً مقصوداً في كل كلمة او حركة تقدم عليها، كما احست شكاً عميقاً وقلقاً مرعباً ايضاً. فتح لها الباب وافسح

المجال كي تمر، ثم سار معها باتجاه السلالم. قلبها ما زال يخفق بسرعة، لكن ليس بفعل الخوف بل لأنه يسير الى جانبها. قطعا الصالون والسلالم والممرات بصمت مطبق. لم ترد ان تقطعه لئلا يبدأ بطرح اسئلته الاستفزازية المعتادة.
وصلا الى باب غرفتها، فانتظر كال حتى فتحت فانيسا الباب ودخل خلفها:
«هناك، في الصندوق اسفل النافذة. لقد وضعت بعض المجلات فوقها. لحظة من فضلك».
رفعت المجلات الخاصة عن الصندوق وراقبته وهو يحملها بسهولة. ثم التفت نحوها عابساً وقالت بنعومة:
«هل المجموعة كلها هنا؟»
«اجل، كلها».
وأدركت فجأة ان الورقتين اللتين سببتا لها كل المتاعب بالصدفة، انخفضت عيناها للحظات وكأنها تعتصر الألم الذي انتابها. آه لو انها لم تعثر عليهما. فتحت عينيها لتجده كان يحدق بها وكأنه عرف كل شيء. احست بألم شديد يطعنها في صدرها ويقطع انفاسها. لا يمكن ان تحتمل الامر اكثر، ستجن اذا لم تهرب من هذا الرجل. استدارت بسرعة واتجهت نحو الباب غير مبالية اذا كان سيلحق بها ام لا، فهي لا تستطيع ان تبقى معه في الغرفة نفسها. اغلقت الباب خلفه بهدوء، وانتظرت حتى ابتعد قليلاً ثم لحقت به. سارت ببطء كي تبقى على مسافة بينهما. وتباطأت حتى لا يبدو الامر متعمداً، وفي الوقت نفسه حتى لا تسير الى جانبه.
وصل الى المكتبة قبلها بوقت طويل، بينما تباطأت هي قليلاً في القاعة الرئيسية:
«لقد اعدت الصندوق الى المكان الذي كان فيه».
«شكراً لك».
اغلقت الباب خلفه بسرعة. ألقت نظرها على الفراغ الذي تركه عندما سحب الكتاب قبل قليل، وقبل ان تتوجه الى رف الكتب القت نظرة خاطفة على الباب كي تتأكد من انه لن يعود. مجموعة الكتب على الرف كانت متشابهة في غلافها وطباعتها. حملت الكتاب المجاور لذلك الذي

اغلفه فوجدت انه يتعلق بالسياحة والأسفار. عادت الى ذهنها على الفور حقيقة انه كان يكتب كتباً عن الرحلات. لربما احتاج الى مرجع لذلك.

اسم المؤلف هو كالوم كيل. ولاحظت فاليسا ان الاسم الأول للمؤلف هو نفسه اسم كال الكامل. قلبت الغلاف الأخير لتنظر الى صورة المؤلف فوجدت رجلاً كث اللحية اسمرها. ثم امعنت النظر اكثر. وكم كانت دهشتها كبيرة وعميقة عندما تأكدت ان الرجل ليس الا كال نفسه.

اذن كال غربي هو نفسه كالوم كيل الكاتب والرحالة والاذاعي المعروف. حدقت فيه وهما الى المائدة وتساءلت في نفسها: كيف لم تعرف شخصيته من قبل؟ كانت قد قرأت له كتابين واستمتعت بهما، خاصة انه يتمتع بطلاقة صادقة في اسلوبه بحيث يشعر الانسان الذي يقضي ساعات في القراءة بانه مسافر معه فعلاً في الصحاري، ومع الرهبان في الجبال. لم تكن تتصور هذا الأمر. هذا الرجل هو كالوم كيل. من السخرية ان يتهمها باستعمال اسم مستعار بينما هو يخفي هو ذاته شخصيته الأخرى. هناك اختلاف بالطبع، فاسمه المستعار كان لأغراض الكتابة. اما [illegible] هو السبب الذي جعله حساساً تجاه اسماء الآخرين. مدت فاليسا يدها لتتناول قطعة من الحلوى وهي تتساءل عما اذا كان بامكانها الهرب. بدأت تحس بأنها مقيدة في هذا البيت. لذلك قررت التغيب في نزهة قصيرة، خاصة ان الأمسية دافئة ومقمرة ومنعشة.. وهي تحتاج في جميع الأحوال الى مجال لتقليب امورها.

وبينما هم يغادرون غرفة الطعام سألت جدها قائلة:

«ارغب في القيام بنزهة قصيرة حتى الباب الخارجي. فهل هناك مانع؟».

«بالطبع لا. امشي حيث ترغبين».

«شكراً لك. انا بحاجة الى بعض الحركة، والأمر مناسب في هذه الليلة. سوف اصعد لأحضر معطفي الربيعي».

ولم تنتبه، عندما استدارت خارجة، الى النظرة التي وجهها جدها الى كال.

سارت نزولاً باتجاه الباب وهي تستنشق بعمق النسيم المسائي المنعش. قسم من القمر كان مظللاً باغصان الشجر، اما القسم الثاني فقد زين

الزهور المترفة. ما حدث هنا كان الأسوأ، ومن غير المتوقع ان تقع اشياء اكثر سوءاً. لقد بدأت طاقتها تخفت تدريجياً وراء توترها العصبي، كما تلاشت شهيتها حتى للاطباق اللذيذة التي اعدتها السيدة بالكي.

الآن، وقد اصبحت بعيدة عن البيت، يمكنها ان تفكر بهدوء وموضوعية. ففي الداخل كانت الضغوط تزيدها توتراً، خاصة بوجود كال وبجانبها الشيخ الذي تبين لها يوماً بعد يوم انه ليس الرجل القاسي الذي وصفه لها ابوها. صحيح انها لاحظت عنده نزعة الى القسوة في بعض الأحيان، لكنه [illegible] الرجل الحنون والمحب واللطيف. لقد اهتم بها يوم الأحد بحيث ظل مع [illegible] يروي لها القصص الطريفة عن اسفاره واعماله ويرفه عنها في [illegible] الخاصة. هذا الجانب من شخصيته بالإضافة الى شيء [illegible] وجعلها [illegible] الى تغيير نظرتها.

لقد كان ابوها مخطئاً وقاسياً... والآن هذا ايضاً.

وصلت الى الباب الخارجي ووقفت عنده. ثم اطلقت نظرها في المرج الممتد كشريط رمادي يلتف حول التلال والوديان. وعلى تلة [illegible] بعيدة... [illegible] مساحات من الثلج الناصع. وقررت فاليسا عينيها على هذه المساحات دون ان تراها بالفعل...، واتخذت قرارها النهائي. يجب الا تفكر بالهرب. عليها قبل ذلك ان تكتب بنفسها رسالة تخبره فيها عن الصدمة العنيفة التي [illegible] انطلاقاً من فكرة الانتقام القاتلة. انها مدينة له بهذا الاعتراف. وسوف تأتي رسالتها [illegible] منه دون ان [illegible] بالحصول عليها. أليست هي ابنة ابيها؟ او لم يخدع ابوها [illegible] ايضاً؟ فاندرو ماكري لا يمكن ان يقبل حفيدة تسير على نهج المخادع حيث [illegible] في عينيها. لا يمكنه بعد اليوم. فقد اتضحت ماهية الكذبة. كان الغريب سيشعر بالارتياح لانه كان محقاً حول شخصيتها. ورغم كل شيء تساءلت فاليسا عما اذا كان سيرتاح فعلاً. كان يبدو على كال الاهتمام الشديد باندرو ماكري. وفي حال اقدامه على الزواج من ميغ، واقدام اندرو على الزواج من آن ماكري، فانهما سيصبحان اقرباء. شدت فاليسا ايضاً على خشب الباب وهي تستعيد منظر الاربعة في غرفة الطعام. كانوا يتحدثون ويضحكون ويتشاورون بينما هي الغريبة بينهم. استدارت عائدة الى البيت. لعل ميغ بدأت الآن اعطاء دروس في العزف.

ولكن فاليسا لم تتصور انها ستسمح لشعرها المصفف بعناية ان تبعثره الحركات والسقطات. وكيف يمكن ان ترتدي بزة التمرين على حساب الفساتين الأنيقة البلاغية؟ لاحت على شفتي فاليسا ظلال ابتسامة وهي تتصور المشهد، لكن المؤسف انها لن تكون هناك لتشاهد بعضها... فتلاشت البسمة بسرعة.

اسرعت عائدة الى البيت... فبعد ان حزمت امرها حول الرسالة عليها ان تكتبها باسرع وقت ممكن.

كانت الأضواء تشعشع في معظم غرف المنزل. توقفت فاليسا لحظات تتأمل هذا البيت الكبير الهادىء. لا غرابة في ان كال فضله لانجاز كتابه، فأية اجواء افضل يمكن ان يتوقعها المؤلف؟ ولا غرابة ايضاً في ان جدها يعود من اسفاره دائماً - كما اخبرها يوم الاحد - وشعور بالراحة والسعادة يملأه لمجرد رؤية البيت. انها تدرك الآن ما قصده من خلال الجو العابق بالسكينة الذي يحيط بالبيت من جميع جوانبه. عضت شفتها السفلى بشدة، فالقدر يمكن ان يكون قاسياً في بعض الأحيان. لقد اعطاها لمحة عما كان سيكون. والآن عليها ان ترحل بعيداً ... ولا بد من ذلك سريعاً. واصلت سيرها الى المدخل الرئيسي، صعدت الدرجات الحجرية وفتحت الباب على مصراعيه... فسمعت الرجلين وهما يضحكان لشيء ما في الصالون.

وكعت فاليسا الى غرفتها وتناولت قلماً ودفتر الرسائل والمغلفات واستعدت للكتابة.

جاء لوري يوم الخميس كعادته بعد التاسعة بقليل. نظر الى فاليسا دون تحوله المكتبة وقال:

«الم تغيري رأيك بعد؟».

هزت رأسها بالنفي:

«كلا يا لوري، انا آسفة، هل لك ان تقوم بالتسجيل بدلاً مني اليوم؟».

ابتسم بهدوء:

«يظهر انك تريدين تحريري؟».

«انا آسفة، لم اقصد ان يبدو الأمر كذلك. آه يا لوري انني حائرة

ومضايقة».

وضعت يدها على خده، فتقدم منها قائلاً:

«ارجوك يا فاليسا، ارجوك لا تحزني. الا يمكن ان اقوم بأي شيء... اي شيء لمساعدتك؟».

«لا، لا يمكنك عمل شيء».

فكرت في الرسالة المكتوبة والمخبوءة في درج طاولتها، والتي تنتظر التسليم عندما يحين الوقت.

رفع لوري ذقنها باطراف اصابعه بحركة شبيهة بحركات كال وقال:

«لا اظنك ستنتحبين على البكاء الآن؟».

لاحظت تعابير وجهه القلقة فقالت على الفور:

«لا، ابداً».

هي تعرف انها غير قادرة على البكاء حتى لو ارادت.

«الحمد لله»

مرر يده العريضة خلال شعره الكث وهو يتنهد بارتياح واضح:

«ما رأيك لو احضرت لك فنجاناً من القهوة او الشاي؟».

«يا الهي... السيدة بانكس سوف تقيم الأرض ولا تقعدها».

«اعرف ذلك. لكنني مستعد لاغضابها ومواجهتها اذا رغبت بفنجان».

«لا اريد ذلك... فقد تناولت فطوري قبل قليل».

كانت الوجبة مرحة فعلاً، اذ تواجدت هي وكال وحدهما حول المائدة. هو ببروده وهدوئه ونظراته الحادة، وهي بافكارها وشرودها... والنتيجة انها لم تأكل سوى قطعة صغيرة من الخبز. فقد كانت متوترة الأعصاب بحيث انه لو اثار اي موضوع لتركت المكان على الفور. لكنه لم يفعل، لعله لاحظ مزاجها المتعكر ورأى المرارة في ملامحها والتي لا يمكن ان تنتهي الا بعدما تركب سيارتها وتغادر المكان دون عودة.

«حسناً، اذا اردت فنجاناً، فقط قولي لي. فمن اجلك انا على استعداد لمقاتلة الأسد... اقصد اللبوءة».

«شكراً لك يا لوري، فانت لطيف جداً».

استدار بحياء قائلاً:

«من الأفضل ان نبدأ العمل... فهذا سيشغل الأذهان».

وساعيد ترتيب هذه الكتب حسب التسلسل».

واشارت باصبعها الى مجموعة من الكتب التي سبق لها ان سحبتها. بدأ العمل الذي يقومان به يعطي ثماره. وكانت تشعر بالارتياح وهي ترى الكتب مرتبة في اماكنها. فخلال اسابيع سيكون كل شيء على اتم وجه في المكتبة... لكنها لن تكون هنا لترى اكتمال ما قد بدأت به. غاص قلبها في صدرها عندما خطرت لها هذه الفكرة: لوري سيكون هنا اما انا فلا. اسرعت الى العمل في محاولة لطرد هذه الأفكار المزلة. وهكذا مضى الصباح متثاقلاً بدون ان يكون لهذا اليوم اي معنى. فجدها وكال سيتناولان العشاء في الخارج، اما هي فستحضر لها السيدة باتكس الطعام الى غرفتها... وهذا الترتيب يناسبها تماماً في هذه الظروف. لو انها تستطيع ان تأكل دائماً في غرفتها، حتى لو وجدت السيدة باتكس ذلك مدعاة للسخرية وغريباً. وضعت الكتب التي كانت تحملها في مكانها والتفتت الى لوري الغارق في عمله بجد ونشاط. احست ببعض الغيرة لأنه استطاع ان يستوعب العمل ويقوم به على افضل وجه. ومن الأكيد انه حديثاً كان سيطلب منه ترتيب المكتبة لو انه عرف سلفاً قدرته على ذلك.

كان بعد الظهر هادئاً بغياب لوري. انهت قاسيا عملها بحدود الخامسة ثم القت نظرة اخيرة على المكتبة قبل ان تتوجه الى غرفتها. تساءلت كيف ستكون العلاقة بين كال ولوري عندما سترحل هي. وربما احسا بضرورة ان لا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض. لاحظت مرة اخرى الرف الذي سحبت منه كال الكتاب قبل مدة. هناك الكثير من الكتب للقراءة، لكنها وجدت نفسها راغبة في قراءة احد كتبه على ضوء اكتشافها لخلفيته وشخصيته. خرجت من المكتبة واغلقت الباب خلفها بهدوء ثم اسرعت الى غرفتها. كانت غرفة كال تقع في الجهة الاخرى من الممر، ومنها سمعت صوت ضربات الآلة الكاتبة، وهو الصوت الذي تردد كثيراً خلال الأيام الماضية. ثم تجاوزت الممر ودخلت الى غرفتها.

عندما بدأت نشرة الأخبار السادسة مساء على شاشة التلفاز، سمعت الرجلين يغادران البيت. وبهدوء تام توجهت الى النافذة لترى جدها يدخل في سيارة كال الكادلاك، ثم انطلقا معاً باتجاه الطريق الرئيسي. بعد ساعة ستحضر لها السيدة باتكس عشاءها المكون من وجبة خفيفة.

خاصة ان الرجلين غائبان. وهي كل ذلك [illegible] احست كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية. احست على النافذة تراقب السهول الممتدة حتى الأفق وقد غرق قلبها في لجة الحزن العميق. عند اليها وجه السيد مورتون الراقص. فخطرها فتخيلت نفسها امامه تعترف له بفشلها، فهي ملزمة له بذلك على الأقل. بعد ذلك ستترك شغلها الخاصة في لندن، بل وربما تغادر لندن كلها، الى خارج البلاد... فهي لم تعد تحتمل حياة القلق بعد الذي جرى لها هنا. احست ببرودة اطار النافذة تلسع رأسها فتساءلت عما اذا كانت ستصاب بالزكام او الانفلونزا. كان جسمها متعباً، ووجهها ملتهباً بالحرارة الشديدة مع ان موجة من البرودة كانت تسري في اوصالها.

ابتعدت قليلاً عن النافذة، ثم وضعت شالها على كتف كال، تناولته واطفأت جهاز التلفاز ثم القت بنفسها على المقعد الوثير. امسكتها القصة التي تحدث فيها عن كيفية تحويله سيارة لاندروفر الى بيت على عجلات، واستعمالها في رحلة طويلة الى مجاهل افريقيا. اعجبها لأن الكاتب ليس مجرد رقم على احد الرفوف، بل هو من تأليف الرجل الذي اقتلعها من الرماح... والذي يمتلك بها ولا يحبها. توقفت قاسيا فجأة عن القراءة وقلبت الكتاب لتعيد التأمل في الصورة المنشورة على الغلاف الأخير. انه يبدو مختلفاً في اللحية، ومع انها لم تعجب به الا انها اعترفت بأن اللحية تناسبه تماماً. احست بحبه، حتى في الصورة، وهما لم يطالب وتستمتع ان [illegible] بغموض شديد. تنهدت بعمق واعادت فتح الكتاب على الصفحة التي كانت تقرأها. ومع ذلك ظل خيال المؤلف يلاحقها باطراد رغم انها بذلت جهداً للتركيز على الموضوع. لقد نسيها صاحب الكتاب واحتضنها، بل وعلمها كيف تسقط بأمان... كما انه كان لطيفاً في احيان قليلة. واحست قاسيا بقلبه يتدفق في كل جسمها وهي تتذكر ذراعيه القويتين وعينيه الحادتين...

اغلقت الكتاب بعنف وتوجهت مرة اخرى الى النافذة. وبدون ان تدري احست باصابعها تلامس شفتيها. لقد عانقها بقوة... انه الرجل الأول الذي يفعل ذلك بدون ان يبدو عليه التأثر. ومن امتداد نظرها ترامت الحدائق والسهول الممتدة في البداية على امتداد ثلاث [illegible] الحرب المكللة بالثلوج البيضاء التي لن تذوب ابداً، لأن الحرارة هناك لا يمكن ان ترتفع

لدرجة تذيب معها الثلج.

سمعت قرعاً على الباب فاستدارت لاستقبال السيدة بالكرسي، وارتاحت لأنها خلصتها من أفكارها الشريرة. وبعد أن تناولت الطعام بدا لها كأن الليل يمتد إلى ما لا نهاية. وتمرير الوقت أزلت صحون الطعام إلى المطبخ ثم تابعت الشاهد مسلسلاً كوميدياً يعرضه التلفاز... وظلت هكذا حتى حان موعد الأخبار. أدركت أنها لن تستطيع النوم بسبب تفكيرها الشديد، لذلك قررت القيام بنزهة قصيرة في المساء البارد والمنعش، لعلها تتعب نفسها قليلاً فتعود إلى النوم فوراً.

ارتدت ثيابها معطفاً صوفياً ثقيلاً، وأطفأت جهاز التلفاز ثم غادرت المنزل. في الخارج كان الهواء بارداً ومنعشاً. سارت حول المنزل باتجاه المدخل الخلفي، ثم نهاية الممر الذي أصبح أكثر حلكة. توقعت أن تصل إلى موقف سيارات البيت إذا ما أكملت سيرها بالاتجاه نفسه، وبعد دقيقة شاهدت مجموعة من البيوت المطوقة التي كانت في يوم من الأيام إسطبلات للخيول. كانت مواقف السيارات مضاءة بنور ساطع معلق على سطح أحد البيوت. وقفت تحت النور تتأمل المكان. شاهدت سيارتها خلف باب نصف مغلق، وإلى جانبها مكان خال حيث تقف سيارة كال عندما يكون في البيت. وتساءلت عما إذا كان الرجلان سيتأخران في العودة. هل يهمها هذا الأمر فعلاً؟ واستغربت كيف جذبها وجه هيثر الجميل وهل تغريها تلك الابتسامة الموجهة إلى كال.

حثت ثابتيا خطواتها مسرعة، وقد صممت على اكتشاف نهاية هذا الممر قبل مغادرة البيت. وكلما توغلت في الممر، كانت الأشجار تزداد كثافة، والطريق يتعرج ويضيق، والظلام يشتد حلكة. ولم تكن تسمع سوى وقع خطواتها على الحصى... وزقزقة عصفور أزعجته وجودها في ذلك الوقت.

وأخيراً وصلت ثابتيا إلى البحيرة. كانت صغيرة المساحة وفي وسطها جزيرة موصولة إلى البر بجسر خشبي يحمل تزينه صخور رصفت بشكل هندسي بديع. وعادت إلى ذهنها صور شاحبة عن مكان معين حدثها عنه أبوها كساحة أمضى فيها طفولته الجميلة. لا شك أن هذا هو المكان البحيرة والجزيرة، مكاناً تخصصه مخيلة طفل. طفرت الدموع من

عينيها لأن الذكرى أعادت إليها كل الماضي بأفراحه وآلامه.

اقتربت من الجسر حتى وطأت عتبته الأولى. الخشب متين ويحتاج إلى دهان جديد، لكنه ما زال صالحاً للاستعمال. جربت بقدميها قدرة الخشب على الاحتمال، فسمعت صريره في سكون الليل الدامس... ومن مكان ما على الضفة تعيق بوم بعيد. استدارت مبتعدة عن الجسر. لن تقدم على زيارة الجزيرة الليلة، لعلها تفعل غداً. ولكنها تعرف في قرارة ذاتها أنها لن تطأها أبداً، لا اليوم ولا غداً... ولا بعد غد.

وفي مكان مطل على البحيرة عثرت ثابتيا على مقعد خشبي تظلله نباتات عالية. جلست عليه تراقب بعض الزهور التي لمست رؤوسها على سطح البحيرة الساكن. ووسط السكون الطاغي انهمرت ذكرياتها بشكل ملح. ذكريات عن والدها عندما كانت أصغر سناً وأكثر انطلاقاً ومرحاً... هكذا تصورت تلك الرحلة التي كانت تخطط لها طفلة مع عائلتها. وبعد ذلك حدثت المأساة التي دفعت ثابتيا إلى هذا المكان سعياً للانتقام.

لقد انتهت الرحلة تقريباً إلى الفشل الذريع. وحيدة؟ صحيح أن لديها العديد من الأصدقاء من الجنسين، لكن هؤلاء كلهم لا يعلمون المشكلة. فهي قد نشأت من الاستقلالية المطلقة وبات بمقدورها أن من تعتمد عليه. أحست الوحدة على عينيها ووجهها وهي تحدق في الظلام اللامتناهي. وفي هذه الأثناء بدأت نجوم متفرقة تلمع في السماء الصافية وقد ازدادت برودة الهواء. لم تشعر ثابتيا مرة في حياتها بالوحدة والضياع كما تشعر الآن. داهمتها موجة مفاجئة من البكاء واليأس فغطت وجهها بين راحتيها وأخذت تنتحب بصمت.

كانت على هذه الحال عندما عثر عليها كال بعد مدة دقائق. لم تره في بادئ الأمر، بل لم تر شيئاً لأن عينيها كانتا مغلقتين خلف راحتيها المتماسكتين. وعندما شاهدته، رأت على وجهه تعابير جعلت قلبها عندما عثر عليها وهي تنتحب في غرفتها. تهدلت كتفاها باعياء حتى بدت وكأنها منهارة تحت وطأة الغم والتعب، في حين وقف كال قربها يراقبها بصمت والاهتمام يبدو على وجهه أن تعابير أخرى، وكأنه يرتدي قناعاً.

«وأخيراً تقدم منها ولمس كتفها بلطف.
«فانيسا؟».
نظرت اليه برهة وقالت:
«ارحل عني!».
خرجت العبارة من فمها دون ان تتمكن، انها لا تريده الآن، بل لا تريد اي انسان في هذه اللحظات. لكنه موجود الى جانبها سواء رغبت او لم ترد.
«الن ارحل. لقد تأخر الوقت وخيّم الظلام، وربما ضعت في الحدائق!».
تضيع؟ يا له من تعبير ظريف! لو انه يعرف فقط كم هي ضائعة فعلاً.
«لا اريد الذهاب. انا اعرف طريق العودة وحدي. قادرة على التصرف. ارجوك».
نظرت اليه مباشرة في محاولة لما يمكن ان يلمحه في وجهها. لا شيء يهم الآن، فقط تريد ان ترحل بعيداً... بعيداً.
«هيا بنا، فالبرودة اصبحت قاسية وقد بدأت ترتجفين».
كانت ترتجف بالفعل مع انها لم تحس بذلك. مررت راحتيها على ذراعيها فشعرت بقشعريرة البرد. وبينما هي كذلك سمعت حفيف قطعة ثياب. ثم شعرت بدفء سترته السميكة على كتفيها. عادت يدها تلامس السترة الجلدية وهي تقول:
«لكنك...».
«انا بخير. ويمكن ان اظل الليل كله في هذا المكان مرتدياً قميصي فقط. فهلا أتيت معي؟».
وجدت فانيسا نفسها واقفة على قدميها بدون ان تدري ما اذا كان قد ساعدها على النهوض ام انها استطاعت ذلك بمفردها. سارا باتجاه البيت وقد عاد الدفء يسري في جسدها وقد شدت السترة بيديها الاثنتين.
«الآن بعد تخلصت من البرد القارس:
«شكراً لك. أظنك اعرتني السترة».
نظرت اليه وهو يسير الى جانبها في حين ظهر قميصه الابيض واضحاً في ذلك الظلام الحالك.

«ولكن هل انت متأكد...؟».
قاطعها قائلاً:
«انا لا أتأثر بالبرد».
ومد يده ملامساً يدها واضاف:
«هل تشعرين؟».
كانت يده دافئة. لم تستمر اللمسة الا لحظات قليلة، لكن فانيسا ظلت تحس بدفئها حتى بعد ان سحب يده... ثم انتقل هذا الدفء بسرعة بحيث شعرت ان جسدها كله يشتعل.
وقالت بسرعة في محاولة لاخفاء اضطرابها:
«لا اعتقد انك ستعود باكراً».
«كلا. نحن اجمالاً لا نعود باكراً. لكن السيدة ماكري لم تكن على ما يرام لذلك...».
ثم توقف. وفكرت فانيسا بسرعة: من الاكيد ان هيلز لم تكن مسرورة لذلك.
«لم يكن النور مضاء في غرفتك، وقد ابلغتنا السيدة بالكس انها سمعتك تغادرين البيت منذ مدة طويلة».
هل صحيح انها امضت زمناً طويلاً في الخارج؟ لقد بدا لها الوقت عدة لحظات فقط.
«لذلك فكرت ان القي نظرة لأرى ما اذا كنت قد ذهبت بسيارتك، ولما وجدت السيارة في مكانها تأكدت من انك في نزهة ليلية... وهكذا وجدتك».
لم يكن هذا هو كل الذي تعرفه. شيء ما غير عادي موجود في تصرفاته، لكن فانيسا لم تستطع ان تحدد بأي شكل هو مختلف. لقد احست بالتعب، وظلت حائرة حتى اوت الى فراشها فبدأت تعيد رسم الصورة بوضوح.
بعد ساعة كانت تجلس في فراشها تتناول فنجاناً من الشوكولاته الساخنة، استعادت رحلة العودة مع كل من البحيرة، وفكرت فيها بهدوء وروية. لم تكن قادرة ان تفعل ذلك عند وصولها لأن جدها كان بانتظارها للقاء، وفور رؤيتها قال:

«ها أنت قد رجعت. هيا ادخلي يا عزيزتي... هيا ادخلي».
واحتضنها بين ذراعيه وأدخلها إلى الصالة. ولسوء حظ فانيسا زاد هذا التصرف الأبوي من حدة أفكارها المتناقضة فيما يتعلق بالموقف من جدها كما هو في الواقع وكما رسمته لها والدتها من قبل.

تمكنت من الانسحاب بعد قليل مدعية بأنها متعبة، وطلبت منهما الإذن بالانصراف، فأذنا لها. لكن تعابير كلا كانت مسيطرة عليها حتى وهي مستلقية في فراشها الآن تشرب فنجان الشوكولاته الدافئة التي أعدتها السيدة بلنكي.

إنها تدرك مغزى التغيير الذي حصل. لقد كان يتصرف بطريقة مختلفة تماماً، بل إنه ينظر إليها بأسلوب مختلف عن تلك الطريقة الباردة التي كانت تشعرها بعدم الارتياح. كان كمن اكتشف شيئاً جديداً. لكن ما هو هذا الاكتشاف؟ وظل السؤال يعبر ذهنها لفترة من الوقت. ثم جاءها الجواب ومعه الشعور بالارتياع: لا شك أنه عرف من هي في الواقع! وضعت الفنجان من يدها خوفاً من أن تسكبه على نفسها بفعل الاضطراب. «آه يا ربي» نطقت هذه العبارة بصوت عال رغماً عنها. إنه يعرف. لم تكن تعلم كيفية اكتشافه الحقيقة، لكنها متأكدة من الأمر. ولهذا السبب عليها أن ترحل في أسرع فرصة، عليها أن تغادر ديستون هاوس إلى الأبد.

٨ - جاء زمن الحب!

استعادت فانيسا هدوءها في صباح اليوم التالي، وتوجهت لتناول فطورها وهي على أتم الاستعداد لكل الاحتمالات. لو أراد أن يثير موضوع شخصيتها عمداً لكان فعل ذلك مساء أمس عندما كانت ضعيفة ومنهارة ورافضة للمواجهة. لكنه لم يفعل. هل يعني ذلك أنه يخبئ المعركة إلى وقت لاحق؟ لم تجد فانيسا جواباً. الشيء الأكيد أنها يجب أن ترحل بسرعة. لذلك ستغادر ديستون هاوس هذا السبت، بعد أن تضع الرسالة بشكل تستطيع السيدة بلنكي أن تعثر عليها فوراً.

وخلال النهار، راقبت فانيسا لوري وهو يعمل في المكتبة فهي تريد أن تتأكد من أنه قادر على القيام بالعمل على الوجه الأكمل بعد مغادرتها. لن تخبره بموعد رحيلها، لكن وداع الغداء هذا اليوم سيكون الوداع الأخير دون أن يدري. كان مرحاً كعادته وأكثر، وكأنه أراد أن يبعد عن فكره حقيقة كونها راحلة. وبعد استراحة الغداء قصيرة تناولا القهوة معاً. ولقد كان من الواضح أن لوري يستمتع بعمله، إلا أنه مضى في حديث لا ينتهي عن الكتب ومحتوياتها ومجلداتها. ارتاحت فانيسا لهذا الجو لأنها لن تضيف عقدة ذنب جديدة بسبب المكتبة إلى العقد العديدة التي تشعر بها حالياً.

عند الساعة الواحدة نظر إلى ساعته وانتصب واقفاً وهو يقول:
«حسناً سأذهب الآن، فعليّ أن أنجز بعض الأعمال في الحديقة. إنني أحب هذه الحياة: المكتبة... وأنت عند الصباح، والحدائق بعد الظهر».
ابتسمت فانيسا:
«أنا مسرورة لذلك. فقط أستغرب كيف أنك لم تكتشف قدراتك في هذا

العمل قبل الآن وتتقدم له... فأنت تقدر عليه أفضل مني».

هز رأسه قائلاً:

«مستحيل. فما كنت لأقبل العمل في المكتبة أساساً لو لم ألتقِ بك في ذلك اليوم».

ابتسمت:

«شكراً لك يا أوزي، وداعاً».

وكانت تريد أن تضيف، شاكرة إياه على المساعدة التي قدمها، لكنها خشيت أن يشك فيها. لذلك اكتفت بالصمت وراقبته وهو يتجه نحو الباب.

قال:

«سأراك إذن يوم الاثنين»...

وأغلق الباب قبل أن تهمس:

«لا... لن تراني بعد اليوم».

نظرت في المكتبة للحظات كي تتأكد من مغادرته البيت، ثم [illegible]

[illegible]

[illegible]

«[illegible]... لا ترهقي نفسك بالوقوف».

نطقت بهذه العبارة عندما حاول الوقوف ليرحب بها. جلست وهي تنظر إليه ببرود، إذ أن شيئاً ما تغير في علاقتهما بعد أحداث الليلة الماضية قرب البحيرة. كانت تتوقع أن تشعر بالخوف من الحقائق التي يعرفها. ولكن لاستغرابها الشديد لم تخف، ولم تعرف السبب في ذلك. فكرت وهي تتناول العشاء: لعل السبب يكمن في أنها ستغادر المكان ولن تراه بعد ذلك أبداً. وقفت بعدها بملعقة العشاء قريباً من فمها. لن تراه أبداً... أبداً. ثم نظرت إلى أعلى وتساءلت بصمت: هذا أقرب وقت ممكن أن يكتشف الإنسان أنه يحب الشخص الذي اعتقد أنه يكرهه.

أعادت الملعقة إلى طبق العشاء. فنظر كال إليها قائلاً:

«ما الأمر؟ هل العشاء سيء؟».

«كلا، كلا... فقط...».

كم سيبدو الأمر مضحكاً إذا علم الحقيقة. وقالت وقد أدركت أنه يرى أنني لا أكرهك أبداً. بل أعتقد أني أحبك كثيراً». وتخيلت الضحكة المجلجلة التي سيطلقها عند سماعه كلامها. لذلك قالت:

«لا أريد هذا العشاء».

إذ هو قد رفع حاجبيه استغراباً.

«وكذلك منذ مدة لا تأكلين أي شيء. هل أنت مريضة؟».

«لا... لست مريضة».

وأضافت لنفسها بإهمال: «أرجوك دعني لوحدي... أرجوك دعني لوحدي». الآن فقط عرفت سر تعلقها بتفاصيل وجهه الكامنة منذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها بمعرفة اسمها. لم يعد في اليد حيلة. عليها أن تعيد النظر إلى ذلك الوجه ذي الملامح الساخرة. الآن بالذات. كان قلق؟ من الصعب أن تصدق. لذلك قررت مغادرة الغرفة.

وقفت فجأة.

«أريد [illegible]

[illegible]

وكانت [illegible]

[illegible]

وخطت باتجاه الباب بدون أن يحاول كال إيقافها أو حتى النطق بكلمة واحدة. وتذكرت غاضبة ربما لأن كال لم يحاول منعها، فلو فعل لكانت انفجرت باكية.

انتظرت حتى سمعت خطواته يدخل إلى غرفة الطعام، فتسللت من غرفتها وغادرت البيت. سارت بدون هدف، فقط تريد الابتعاد عن المنزل لفترة قصيرة. أسرعت إلى موقف السيارات فوجدت الباب مفتوحاً وسيارتها تنتظر.

عبثت أصابعها في حقيبة يدها حتى عثرت على مفاتيح السيارة، ثم عبرت بسرعة إلى الموقف، لم يدر محرك السيارة في بادئ الأمر، إلا أنه زمجر أخيراً بعد محاولات عدة. إنها بحاجة إلى نزهة قصيرة لتعيد الوضوح إلى ذهنها والطمأنينة إلى نفسها، هي تعرف إلى أين تقصد. فالطريق يمتد متعرجاً بين التلال باتجاه ما كان في الماضي قرية صغيرة منعزلة. أما الآن

فلم يعد هناك الا جدران شبه مهدمة صارت مأوى للقطط تعبث بها الرياح العاصفة. صحيح ان المنطقة عادية جداً الا انها تبعث الطمأنينة في النفس.

قادت سيارتها باتجاه الباب الرئيسي، فالتقت بفوزي الذي لوح لها بيده. ربما من الأفضل ان تكتب له كلمة قصيرة، فهذا حق الصحبة عليها.

سار الطريق متعرجاً في ذلك المساء البارد المنعش، فتركت قاتيا شباك سيارتها تاركة الهواء يتسلل الى وجهها وشعرها. منذ وقت تأمل الطبيعة لاخضرار بعض جوانبها الايام الصعبة الآتية. ان قلة من الناس يقصدون هذه الناحية. الى اليسار منها تكاثرت مستنقعات وبحيرات لا حصر لها. اما الى اليمين فقد كانت التلال موزعة بدون ترتيب. اعجبت قاتيا بعزلة هذه المنطقة عن العالم وتساءلت عن كيفية العيش بعيداً عن كل الناس، وسط الأشجار والسناجب والمياه والتلال التي تغطيها الثلوج في معظم اشهر السنة.

عبرت النهر باتجاه ساحة خضراء قريبة، ثم اوقفت محرك السيارة. عم صمت شامل لم يقطعه سوى صوت المذياع... قبل ان تسكته قاتيا ايضاً، وبدأ تزعجها على القدمين. تريد ان تفكر بالاكتشاف القاسي الذي داهمها بشأن مشاعرها تجاه كال. انه حتى الموسيقى كانت تحثّر عليها، فالأغنية العاطفية التي كان يبثها المذياع انسابت بموسيقى شجية مؤثرة بحيث لم تستطع قاتيا الا ان تتذكر كال عندما جاءت كلماتها التالية: «لكن لماذا احبك؟ اني لم استطع الهرب من قسوتك وجفائك...» لذلك اسكتت المذياع بنزق واغلقت باب السيارة خلفها بقوة. انها مجرد صدفة. همست لنفسها تردد كلمات الأغنية «لكن لماذا احبك؟».

لم تستطع مقاومة وجه كال عندما طغى على مشاعرها وافكارها، والصورة التي عادت الى ذهنها هي صورته لقائهما الأول في المقهى حين رفع عينيه عن الصحيفة والقى نظرة خاطفة اليها، وكذلك صورته عندما تغلب على الشرير بسهولة عجيبة، ثم نقاشهما الحاد في اكثر من مناسبة، وتذكرته لطيفاً في عناقه، قاسياً في تساؤلاته الملحة، واخيراً الاهتمام بالدليل كما حدث اليوم. ولكن الحدث الأهم كان مساء امس عندما احست بلمسة

سرته بلا اسى كتمها البارحة. كان طريق العودة الى البيت مختلفاً تماماً أمس، والآن فقط ادركت لماذا. ولا شك انه عرف الحقيقة. احدث شيئاً مريباً وجلست على التلال محاطة رواسي بهدوء ثم مدت يدها الى نعجة كانت ترافقها بخوف. همست لها: «تعالي» لكن النعجة هزت رأسها واستدارت بعيداً.

الصمت في كل مكان. ومن بعيد كانت تأتي بين الحين والآخر اصوات بعض الحيوانات. لا سيارات ولا ناس، فقط سكون هذه الأمسية الصيفية الدافئة التي كانت فقط تموت في عينيّ قاتيا. فلم تكن تتصور نفسها في علاقة حب، ولم تكن تتصور انها ستنظر الى رجل ما وتعيش هذا الحنو الشديد الذي ينشأ عن الشعور بالحب.

ربما لهذا كم كانت غبية! ادركت هذه الصبية بفتور قال عظمة في ان تعدها او يسمعها. منذ طفولتها لم تلتفت الى امكانيتها وهي تتساءل عما اذا كانت ترتكب خطأ حسياً تعاقبها عليه... والآن جاء الحب. لا يكفيها الا بعد ان تلتفت حولها وتعرفت اليه ولو بشكل غير كافٍ. وانها حصلت على صورة اشمل من تلك التي تمنتها لنا ابوها. نظرت قاتيا الى احد البيوت المجاورة دون ان تستطيع الرؤية، فقد كانت افكارها مع والدها الذي احبته بجنون... والذي ادركت الآن انه ارتكب اخطاء وسيئات مثل اي انسان آخر، وربما اكثر من اي انسان آخر. والاكثر ما آلمها معرفتها بأن الانسان الذي احبته بعمق ليس كاملاً. عليها ان تتلف الاوراق الشاهدة على رحيلها وذلك من اجل ابيها وجدها على حد سواء. ثم ستبني حياة جديدة بعيداً عن الألم الماضي، والزمن كفيل بالأوراق المعلقة، وستجد بعد حين انه يرقدون بسلام والناس الذين يعيشون فيه هم مجرد ذكرى لا اثر لها في نفسها سوى...

وقفت قاتيا فجأة وتابعت السير... ما تحتاج اليه الآن ان تهيم على وجهها في الريف بدون هدف وبدون ازعاج من احد. مشت في الحقول الخضراء الممتدة وهي تشعر بسعادة غامرة لاحتكاكها بالطبيعة الفاتنة المختلفة، وابتعدت عن الطرقات المطروقة فلم تعد تجد الا الاشجار والصخور وبعض الاغنام التي ترعى في ذلك الريف المنعزل. ظلت تصعد في التلال حتى وصلت الى جدول مائي ينحدر هدهد رقراقاً وقد انعكست

عليه اضواء المساء الخافتة. وقفت الليس قليلاً واخذت ترطب يديها ووجهها بالماء البارد المنعش، ثم شربت بعض قطرات منه ... وتابعت سيرها.

ازدادت الأشجار كثافة، ولاحت امامها غابة واسعة من الشجر الصنوبر والسنديان. عما قليل ستدخل هذه الغابة الكثيفة وتضيع في لا نهايتها.

دخلت بين الأشجار المتشابكة فأحست بالبرودة تشتد بحيث اخذت ترتعش. لكنها واصلت تقدمها وكأنها مسحورة بالخضرة الطاغية المحيطة بها وبصوت تكسر اغصان الصنوبر اليابسة تحت قدميها. الهواء مليء بالرطوبة الباردة، فالشمس لا تصل الى داخل الغابة بل تكتفي بملامسة رؤوس الأشجار التي تزداد طولاً وضخامة.

وقفت الليس في مكانها لحظة واطلقت نظرها الى الأعلى، حيث جذوع الأشجار تمتد وتمتد. شعرت بأن الأغصان تطبق عليها والأشياء تدور حولها بسرعة غريبة متلاحقة، فاستندت الى اقرب شجرة لتتدارك السقوط. وعرفت على الفور انها جائعة جداً فهي لم تتناول من الطعام الا [illegible] من الحساء قبل ان تنطلق الى [illegible] وتكتشف [illegible] ... وبعد ذلك فقدت شهيتها.

بدا لها ان الغابة اصبحت اكثر برودة واشد ظلاماً. فقررت عدم مواصلة التقدم، لم تعد تنفعها الافكار والتحليلات. الشيء الوحيد الباقي لها هو ان ترحل بعيداً ... بعيداً ... عندما تعود الى [illegible] هاوس سوف تجهز حقيبتها للمغادرة. سمعت صوتاً عالياً يشبه حفيف أوراق الشجر اليابسة عندما تدوسها الأقدام، وعندما خرجت من الغابة اكتشفت ان الصوت ناتج عن المطر الذي بدأ يهمر خفيفاً. لم تنزعج من البلل، بل رفعت وجهها الى السماء لتستقبل زخات المطر المنعش على بشرتها. اتجهت بالتالي نحو سيارتها وقد ابتلت الأرض تحت قدميها.

دخلت السيارة وادارت محركها. علا الزئير وسط الصمت الغابي، لكن العجلات دارت في مكانها دون ان تتحرك السيارة قيد انملة. اطفأت المحرك ثم جربت مرة اخرى وقد اعتراها القلق. تقدمت السيارة خطوات الى الامام قبل ان تعود عجلاتها مرة اخرى وتراوح مكانها. اطفأت المحرك

وخرجت لتفحص العجلات. وجدت الخلفيتين غارقتين كلياً في الوحل [illegible] بعد كل الذي حصل، يحدث هذا. لو انها انتبهت الى المكان قبل ان تتوقف فيه! لا فائدة الآن من الوقوف تحت المطر دون معين ... بحثت الليس حولها عن اغصان او حجارة او ما شابه ذلك يمكن ان يوضع تحت العجلتين الخلفيتين لتساعدهما على الانطلاق. لكنها لم تجد شيئاً ... على الأقل بالقرب منها. وادركت ان عليها العودة الى الغابة لاحضار بعض الاغصان اليابسة. فالمطر يزداد غزارة والظلام يشتد. [illegible] كان الامر [illegible]، ومع انها لا ترغب بفكرة العودة الى الغابة المظلمة الرطبة، الا انها مضطرة لذلك.

توجهت عائدة الى الغابة بخطى سريعة جداً. فالأمر ملح، والمطر لا يرحم. [illegible] اول شجرة [illegible] الأغصان اليابسة [illegible] المتساقطة ... وفجأة سمعت صوت محرك سيارة يزداد وضوحاً كلما اقترب من الغابة. سيارة في هذا المكان؟ والعجلات [illegible]. وقفت الليس في مكانها [illegible] من ان [illegible] لا [illegible] الأمر [illegible] المحرك [illegible] واصبحا قريب [illegible] سيارتها [illegible] ... [illegible]

[illegible] في مكانها، [illegible] من [illegible] يعصف [illegible] يحدث هذا؟ من الأكيد انه لم يأت [illegible] في هذا المكان بالتحديد! [illegible] وحده؟ وشاهدته يخرج من سيارته [illegible] الى سيارتها [illegible]. على الأقل انه ليس مع [illegible] فهو لا [illegible] سيارتها [illegible] السيارة، [illegible] من [illegible] ثم سمعت [illegible] صوت [illegible] السيارة [illegible]. لا فائدة من الوقوف هنا، بل عليها ان تخرج [illegible] انها بحاجة الى مساعدته ... لا شك انه سيقدم [illegible] طبعاً [illegible] السحرية، ولكنها [illegible] على ذلك.

غادرت الغابة واخذت تعدو باتجاه السيارتين. كانت مستعدة لتحمل سخريته وتهكمه، ولكن لن تتحمل غضبه ابداً ... [illegible] يتحكم [illegible] وهي تقترب. [illegible] منه حتى [illegible] ما تعكس [illegible] عينيه [illegible]

قال بصوت غاضب آمر:

«ما تظنين نفسك فاعلة في هذا المكان؟».
جعلتها الصدمة في مكانها:
«ماذا؟».
وقلت: «ما تظنين نفسك فاعلة هنا؟».
كانت عيناه مشتعلتين بالغضب . . . هذا الغضب الذي يؤثر كثيراً في قلبها. فجأة انفجرت ضاحكة. لعل التوتر الزائد اطلق هذه الضحكة الهستيرية التي سرعان ما تحولت الى نحيب ممسكة على وجنتيها. امسك كال بذراعيها وهزها بقوة:
«كفى!».
توقفت فجأة وكأنها اسيرة ذلك الصوت العميق الغاضب. ظل ممسكاً بها وهي تتساءل في نفسها عن ردة فعله لو قالت له: «اني احبك يا كال، فأرجوك ان لا تنسى . . . لأنك لو فعلت فإني اريد ان اعانقك طويلاً». وردت النظر اليه شاحبة الوجه، وقلقة من جراء الافكار التي تجول في ذهنها. فجأة ارتخت عضلات وجهه واطلق سراحها قائلاً بهدوء:
«حسناً اعتذر لأني صرخت فيك. لكن اسمعي للحظات. لقد اختفيت دون ان تتناولي شيئاً على العشاء، ذهبت في سيارتك الى مكان لا يعلمه الا الله . . . ولساعتين كاملتين، لم يبد اي اثر لك . . .».
ساعتان! كانت تحس انها امضت عشر دقائق فقط في الغابة. لكن نظرة سريعة الى ساعة يدها اكدت لها صدق كلامه.
نظرت اليه وقالت:
«لا استطيع ان اذهب في نزهة مسائية عندما اريد». ثم اضافت بهدوء: «لست ارى سبباً لكل هذا الغضب من قبلك!».
«الغضب؟ طبعاً غضبت. فقد اعتقدت انك مريضة».
اتسعت حدقتاها بذهل الصدمة . . . اما هو فقد نظر اليها بابتسامة سخرية واضحة:
«لقد ذهبت وتحدثت الى لوري».
توقف قليلاً. وانتظرت قلبها ممسكة بتنفسها لأنها تعرف ما سيحدث . . . ولا تستطيع فعل شيء لايقافه. وتابع قائلاً:
«سألته عما اذا كان يعرف مكانك، فلا فائدة من البحث عنك اذا ما

كنت تقضين اوقاتك معه. وكان من الواضح ان سؤالي صدمه وجعله يضطرب».
استدارت بقلبها بعيداً من نظراته الحادة، الا انه وضع يده على ذراعها بلطف وقال:
«لقد حصلت على الحقيقة منه بشكل او بآخر. تلك مخططات الرحيل . . .».
وصاحت بلا تفكير بالغضب:
«مسكين لوري!».
«لا تلوميه. فلو كنت لأرغمه دون ان يخبرني كل شيء . . .».
بدت حائرة واضحة
«لا شأن لك بي في ذلك ابدا».
«هذا صحيح. ولكنه لم يخبرني عن الجولة. لم تكن هناك ضرورة، فقد عرفت لوحدي».
شعرت وكأنها ستغيب عن الوعي. نظرت اليه بتساؤل:
«هل يعرف هو ايضاً؟».
«لم يكن من الضروري ان اذكر اسم احد، فالامر واضح تماماً بالنسبة لي لا احد غيري يعرف الحقيقة».
«كيف . . . كيف عرفت؟».
خرجت كلماتها بصعوبة بالغة. وفجأة بدا لها العالم مكاناً مرعباً لا مجال للهرب منه، واحست بالأرض تميد تحت قدميها وكأن زلزالاً مدمراً ضربها. اما كال فقد كان هادئاً صامتاً ولا مبالياً. بدأت ترتجف رغماً عنها، فاضطر الى امساكها من ذراعها قائلاً:
«ادخلي الى سيارتي».
«كلا».
وحاولت ان تخلص ذراعها من يده، لكن قبضته الحديدية لم تمكنها من ذلك.
«بل. لن تبقي هنا تحت هذا المطر. فأنت مبللة تماماً. والا ما اصبت بالانفلونزا التي لن يكون بامكانك الرحيل الى اي مكان».
قادها نحو السيارة وفتح لها الباب. فألقت نفسها على المقعد مترددة

الفوري. استدار وجلس بالقرب منها، ثم أدار المدفأة الداخلية، متجاهلاً هواء الساحل نحو السيارة الدافئة. أسندت ظهرها إلى مقعد السيارة وأغمضت عينيها طلباً للراحة. قال شيئاً لم تسمعه لكنها أحست بكرة لوري بي. بإيماء فنظرت إليه وهو يقول:

«تستحقين وجهك وشعرك؟ هذا أفضل ما أطلبه منك الآن»

لعل من الأسهل أن تنفذ أوامره بدلاً من الجدال اللانهائي.

قال وهو يراقبها:

«ستسأليني كيف اكتشفت الحقيقة؟»

كانت قد بدأت تنشف شعرها الطويل. طلب منها أن تخلع معطفها المبتل لأن السيارة صارت دافئة. فعلت بخجل وانحنى ليساعدها في تخليص ذراعيها ثم رمى المعطف على المقعد الخلفي.

تابع قائلاً:

«لقد عرفت ذلك. في البداية كنت غير مرتاح لشخصيتك. شعرت بوجود شيء غريب لم أعرف ما هو ... إلى أن كانت الليلة الماضية».

لم تنس ألفيا ببنت شفة، تركته يروي القصة كما يشاء. لم تعد مهتمة بشيء ... فقد انتهى الأمر.

«رأيت الليلة الماضية صورة لابن أندرو ماكلين في بيت عمتي. فقد أحضرت عمتي صندوقاً مليئاً بالبطاقات والخرائط والصور التي جمعتها مذ كانت طفلة ... وبينما هي تقلب الأوراق شاهدت صورة لأندرو مع ابنه عندما كان طفلاً. لم أسأل عن سبب وجود هذه الصورة في الصندوق، بل اكتفيت باحتفاظها في حوزتي. ثم أضافت مداعبة: ولا مانع عندي أن أنشل إذا أردت ذلك. هل تريدين رؤية الصورة؟»

«كلا».

«يجب أن تريها. إنه واضح تماماً. استغرب فقط كيف لم يلحظ ذلك».

استدارت إليه وقد طفح بها الكيل:

«حسناً. ماذا تريد أن تفعل الآن؟»

«وأنا؟» ضحكت عيناه وهو يقول: «أفعل؟ لا شيء».

كبتت في نفسها صرخة عالية، ثم قالت بهدوء:

«ولا تعطني هذا الجواب السخيف. ألست مسروراً لاكتشافك هذا؟»

ابتلعت ريقها بصعوبة مصممة على أن لا تضعف أمامه:

«أليس هذا ما كنت تنتظره؟ حسناً، اذهب وأخبره. فالأمر لم يعد يعنيني أبداً».

قال بهدوء:

«أعتقد أن عليك أن تخبريه بنفسك. أما الآن فسأعود بك إلى البيت قبل أن تصابي بالبرد».

«لكن سيارتي هناك».

«أعرف ذلك».

أدار محرك السيارة وهو يقول: «لست قادرة على القيادة الآن. وسأعود غداً مع لوري لإحضارها».

أضجرت في وجهه في محاولة أخيرة للعودة:

«إنه يكرهني».

بدا مندهشاً وهو يسأل:

«هل يكرهني فعلاً على تحريك القدر؟»

«كلا».

«وماذا قال؟»

«لن أخبرك. بل لن أناقش أي شيء معك».

«إذا أخبرتك عن شقيقه فلا شك أن أثر القصة قليلاً. لذلك سأحكي لك قصتي أنا، وبعد ذلك أنت حرة في تصديق الجانب الذي يعجبك. وأؤكد لك أنني غير مهتم بما ستصدقين».

أطفأ محرك السيارة وتابع قائلاً:

«القصة سهلة بحيث تبدو غير معقولة، لكنها الحقيقة كاملة. لقد أعجبت شقيقة لوري بي. صحيح أنها فتاة لطيفة لكنني لم أعجب بها شخصياً، كما أنني ألقي نفسها من وحدتها على أنكرها مدللة ومغرورة. لذلك أخبرت أخاها بأنني حاولت التحرش بها. لم يكن منه إلا أن تصدى لي في إحدى الليالي وحاول ضربي. لم أعرف آنذاك غضبه، ولكني أصبحت الآن أعرف الكثير من الجوانب ... وهكذا واجهته وتغلبت عليه دون أن أؤذيه. فقط دافعت عن نفسي، وأجبرته على الاعتذار عن سبب غضبه. لم

يصدقني عندما اكدت له بأني لم اقترب من اخته ابداً. ولا شك ان كريات
الجرح لأبي الشحنت فيها بعد انه يظل عليه في الملاكمة في هذه المنطقة
وهذا ببساطة هو سبب عدم اعجابه بي. وبعد ذلك مرضت شقيقته حالتها
ورحلت الى الجنوب للعيش في ابردين حيث يمكن ان تجد ما يناسبها. وهنا
تنتهي قصتي»

اذ تحركت السيارة مجدداً، في حين ظلت ماليسا صامتة. لقد صدقت
قصته. كما ان الحديث عن شقيقة لوري ساعدها فتخطت عن سياق
القصة الاساسية التي تدور حولها شخصياً. نظرت اليه وهو يقود السيارة في
الممر الذي يوصل الى الطريق العام، فشعرت باضطراب شديد: كيف
تمكن ان تحب وتكره الانسان ذاته في الوقت نفسه؟ يجب ان يكون الامر
مستحيلاً. لكنها تحبه وتكرهه في آن واحد. غمضت ماليسا في مقعدها
مرتبكة، والتفت رأسها الى الخلف وهي تحس بحرج كبير. لقد جعلها كلال
بأنه لا ينوي اخبار احد عن حقيقة شخصيتها، وهي تميل الى تصديقه.
وفجأة عادت الى ذهنها صورة الرسالة القابعة في غرفتها، وتذكرت ان عليها
الرحيل في الصباح الباكر.

سألته بهدوء وتعاطف:

«هل يمكن ان تحضر سيارتي هذا المساء، فهي غير مقفلة؟»

«المنطقة آمنة هنا». ثم التفت اليها مبتسماً: «هل كل ما تحضرها الليلة،
ولا تقلقي»

«شكراً لك»

«هل هناك شيء واحد، يجب ان احصل على مفاتيح السيارة حتى تغادر
البيت باكراً»

«وهل يمكن ان تترك لي المفاتيح في البهو عندما تعود، فقد اكون
نائمة؟»

«كما ترغبين، فأنا لن اسهر»

لم تشأ ان تقول له انها لم تفكر في هذا الامر... وهكذا امضى القسم
الاخير من رحلة العودة صامتين.

اوقف كلال السيارة امام الباب الامامي، وفتح الباب لماليسا قائلاً:
«هيا الى الداخل. سأطلب من السيدة بانكس ان تجهز لك العشاء بعد

ان ابلغ... السيد ماكلين بأنك عدت بسلام. سأقول له ان سيارتك
علقت في الوحل ولذلك حاولت اصلاحها بنفسك»

رافقته وهما يصعدان الى البهو الداخلي. لا شك انه عنى شيئاً عندما ختم
كلامه بالقرب من السيارة قائلاً بنبرة واضحة

«وهذا كل ما سأقوله له... ان الباقي سر بيني وبينك انتِ يا ماليسا»

وحلا بعيداً. صعدت ماليسا الى الغرفة مسرعة باتجاه السلالم، وكانت من
التعب بحيث اضطرت للاستناد الى الجدار.

بذلت جهداً كبيراً في تبديل ملابسها والاستحمام واللجوء الى دفء
السرير. لم تحرز على مباشرة حزم حقائبها خوفاً من ان تكتشفها السيدة
بانكس، لكنها ستفعل فور الانتهاء من عشائها... فهي بحاجة الى
استجماع قوتها اذا ما ارادت الرحيل باكراً.

كان العشاء على وشك ان يغلبها عندما سمعت قرعاً على الباب،
جلست في سريرها وقالت:

«ادخل»

لم تكن السيدة بانكس، بل كان كلال حاملاً صينية الطعام. فاجأها
منظره فسحبت الغطاء الى كتفيها ونظرت اليه باستنكار وقلق.

«لا تضطربي، فأنا لا انظر اليك» ثم اضاف مبتسماً: «فالسيدة
بانكس لا تطردني من المطبخ لأنها مشغولة بصنع قالب من الكاتو، ولذلك
تبرعت باحضار الطعام بنفسي»

وضع الصينية على ركبتيها بعناية، ثم نظر اليها وكأنه يريد ان يقول
شيئاً. لكنه استدار واتجه نحو الباب. قال وهو يغادر الغرفة: «تصبحين
على خير يا ماليسا»

«وتصبح على خير ايضاً» ثم اضافت بعد ان اغلق الباب:

«ووداعاً يا كلال»

انتهى الأمر. لن تراه مرة اخرى ابداً. تنهدت بعمق... وبدأت في
تناول طعامها.

تأخر النوم في المجيء الى عينيها... وعندما جاء، كان متقطعاً
ومضطرباً ومليئاً بالاحلام والكوابيس المرعبة التي رافقتها مرات عدة.
نهضت من فراشها بعد ان ازعجها كابوس رأت نفسها فيه ضائعة في غابة

كثيفة الأشجار وشخص غريب يلاحقها. لم تستطع أن ترى ملامحه، فقط
ظلت تسمع صوتاً يردد باستمرار:
«فاتيما ... فاتيما»
كان حلم الكابوس مرعباً وصادقاً بحيث وجدت صعوبة في العودة إلى
النوم، لذلك نهضت من سريرها واقتربت من الساعة لتعرف الوقت بدون
أن تضيء النور خوفاً من أن يراها أحد. كانت حوالي الخامسة تماماً.
نظرت إلى السرير الدافئ وتمنت لو تعود إليه. لكنها تعرف أن النوم
سيخذلها إذا فعلت وبالتالي ستفوتها رحلة الهرب. لذلك يجب أن تتحرك
الآن.

كانت حقيبتاها معبأتين وجاهزتين في الحمام بانتظار الرحيل. عليها فقط
أن ترتدي ملابسها وتأخذ مفاتيح سيارتها... والرسالة. وطبعاً يجب أن لا
تنسى ترك الرسالة على الخشبة لتجدها السيدة بالكس في الصباح. ويبدو
بأنها كانت صنعاً تركته للرحلة عندما مرت حقيبتها. ثم وضعت
الرسالة على الخشبة وقلبها يعتصر ألماً من جراء إحساسها بالحزن العميق
لأن الرسالة هي آخر خطوة في هذه الرحلة المميتة.

تسللت على رؤوس أصابعها وهي تحمل الحقيبتين، وعندما وصلت إلى
البهو الداخلي وضعت إحداهما على الأرض لتأخذ مفاتيحها الموضوعة على
الطاولة. لقد صدق كال في كلامه، فها هي المفاتيح موجودة في المكان
المتفق عليه.

شهقت فاتيما بالدموع المكتومة وهي تفتح الباب. لم يعد أبداً أن
تلق نظرة على البيت الذي تغادره. وقد صدمتها هذه المسألة عندما وصلت
إلى ديسمونا هاوس، لكنها تشعر الآن بالارتياح لذلك. خرجت وأغلقت
الباب بهدوء، ثم حملت حقيبتها وسارت نحو موقف السيارات. في
الخارج، صدمتها لفحة الهواء البارد الرطب في حين كان الضباب يغطي العشب
والأشجار والبيت كله. ارتجفت باضطراب وهي تلقي نظرة الوداع على
البيت. لقد كان تماماً مثل الناس الذين يأتون إليه.
استدارت وحثت خطاها نحو موقف السيارات. وخوفاً من أن يسمع
أحد وقع قدميها على حصى الممر، انتقلت للسير على العشب المجاور
وظلت عليه حتى الأمتار القليلة الأخيرة. لا شيء يتحرك في البيت، حتى

مناظير المطبخ ما زالت مغلقة والأضواء مطفأة.
وضعت حقيبتيها في المقعد الأمامي واستدارت إلى مقعد القيادة وأغلقت
الباب بهدوء ثم أدارت مفتاح المحرك. زأر المحرك عدة مرات دون أن
يتحرك. وبقلق شديد كررت المحاولة مرة أخرى، ولكن شيئاً لم يتغير. هل
البرودة هي السبب؟
همست لنفسها بغضب:
هل كان من الضروري أن يحدث ذلك الآن؟
فتحت الغطاء وخرجت بهدوء لتفحص المحرك. حاولت جهدها ألا
تصدر أية أصوات. رفعت الغطاء وألقت نظرة شاملة دون أن تدري فعلاً
عما تبحث. باستثناء حدس يقول لها أن شيئاً ما غير طبيعي. إنها تعرف
بعض المعلومات العامة عن المحرك. وقد أكدت لها نظرتها العابرة أن كل
شيء في مكانه.
كانت على وشك أن تعيد الغطاء إلى مكانه عندما لاحظت أن إحدى
مضخات الوقود غير محكمة الربط. ولما تفحصتها وجدت الفتحة الأخرى
غير محكمة أيضاً كما إنه في شكوكها. وبما راحت تغطيه توزيع الوقود وجدت
أن الفتحة نفسها غير موجودة، وعرفت على الفور المسؤول عن هذه اللعبة
القذرة. إنه كال بالتأكيد. لقد جرب هذه اللعبة بعد إحدى السهرات على
سبيل المزاح، عندما أخفى الفتحة من سيارتها بحيث اضطرت لرفقته في
سيارته عائدين إلى البيت. أبلت المزحة في المرة الأولى، وضحكت كثيراً
عندما أخبرها كال الحقيقة على العشاء في اليوم التالي. أما الآن فالمسألة
مختلفة، ولا شيء فيها يثير الضحك.
أغلقت الغطاء بهدوء وعادت مسرعة إلى البيت. وبما أنه أخذ الفتحة
من سيارتها فستذهب إليه فوراً لاستعادتها منه، والأرجح أن يكون محتفظاً
بها في غرفته. لكن لماذا؟ قلبت هذا السؤال في ذهنها وهي تركض على
العشب عائدة إلى البيت الذي ودعته قبل قليل. كانت منزعجة جداً، وكلما
اقتربت من البيت تحول حزنها إلى غضب شديد. فتحت الباب بسرعة ثم
أغلقته بشدة وركضت باتجاه السلالم. كانت تحس بموجة عارمة من الضيق
في صدرها والنار تشتعل في عينيها. كيف تجرؤ هذا الرجل العنيد على
التصرف معها بهذا الشكل؟

وصلت إلى غرفة نومه . . . ترددت لحظات قبل أن تفتح الباب وتدخل عليه بقوة. كان غارقاً في نومه ولم يظهر منه سوى شعره الأسود الفاحم، في حين امتدت يده اليمنى خارج الغطاء الدقيق.

نظرت إليه وهي تفكر في ما يجب أن تفعله الآن. ولم يستمر ترددها طويلاً. لقد انحنت إليه وهزته بعنف.

استيقظ على الفور وفتح عينيه واسعاً وهو ينظر إليها باستغراب شديد. ثم قال بصوت ما زال ناعساً:

«ما الأمر؟ ماذا يجري؟».

قالت بحزم:

«أين هي؟».

حاول أن يمسح عن وجهه آثار النعاس ثم جلس في مكانه ونظر إلى الساعة صارخاً:

«يا إلهي. . هل تعرفين كم الساعة الآن؟».

«أجل. أين القسيمة التي أخذتها من سيارتي؟».

تنهد بعمق وعلى وجهه تعابير الاعتراف بالهزيمة:

«ألأن هذه هي المشكلة؟».

«أجل. هذه هي».

شدت قبضتيها بقوة وجاهدت لتمنع نفسها من ضربه. فالأمر لن يعود عليها بأية فائدة. ومن الأكيد أنه سيرفض إعطاءها القسيمة بعد ذلك. هدأت نفسها وقالت:

«أرجوك أن تعطيني إياها».

كان كأن قد استيقظ تماماً الآن وجلس في السرير بشكل مريح. نظر إليها ثم هز رأسه وقال:

«لا . . .».

«ولماذا لا؟».

«لأنك ستهربين بعد ذلك».

قاطعته بغضب:

«وماذا يعنيك الأمر في أي حال؟».

«يعنيني كثيراً. فأنا لن أسمح لك بالهرب مثل . . .».

قاطعته مرة أخرى:

«اذهب إلى أنت وأفكارك».

ثم استدارت قليلاً في محاولة لكبت جماح غضبها المتزايد. وفجأة لمحت مفاتيح سيارة على الطاولة . . . إنها مفاتيح سيارة الجاكوار. ودون أن تفكر بما تفعل التقطت المفاتيح غير عابئة بأن ذلك قد يعتبر سرقة. ولماذا؟ أليس هو الذي أخطأ في الأساس. قالت:

«أنا سآخذ سيارتك. وداعاً. سأكتب لك في وقت لاحق لأبلغك عن المكان الذي ستجد فيه سيارتك».

استدارت وخرجت راكضة من الغرفة، ثم أسرعت في الممر نزولاً إلى السلالم باتجاه القاعة وهي تدعو ربها أن لا ينهض كال ويلحقها. وركضت من الباب باتجاه الممر غير مهتمة بصوت الحصى المبعثرة تحت قدميها. فقد انتهى الأمر الآن.

أطلقت العنان لساقيها مدفوعة بالخوف واليأس. ليس هناك الكثير من الوقت. عليها أولاً أن تنقل حقيبتها من سيارتها إلى الجاكوار. فسيارة كال قريبة من سيارتها والأبواب كلها مشرعة. فقط عليها أن . . . وصلت إلى الموقف وأسرعت بفتح باب سيارتها وانحنت لترفع الحقيبتين عندما وقع عليها ظل شخص ما. رفعت عينيها لتجد كال واقفاً بالقرب منها وهو حافي القدمين.

تنفس بعمق وهو يقول:

«أنك بالفعل قادرة على الهرب».

انتصبت واقفة وقد أسقطت من ذهنها كل شيء ما عدا الهرب من هذا الرجل. قالت وهي ترفع الحقيبتين:

«ابتعد عن طريقي فوراً».

«لا شك أنك تمزحين. ضعي الحقيبتين وهيا إلى البيت بهدوء. فقد انتهى زمن المزح والألعاب يا حبيبتي».

لم تنتبه إلى الكلمة الأخيرة التي استعملها. فقد كان يشد على يديه الحقيبتين اللتين انتزعهما منها. وعند هذا الحد طفح الكيل معها واتخذ صدرها يغلي كمرجل، وبلا وعي هجمت عليه بكلتا يديها. أما هو فقد ارخى الحقيبتين من يديه واطلق ضحكة مجلجلة ثم امسك بها وجذبها

في مكانها.

«لقد حذرتك مما سيحدث لك اذا ما أقدمت على فضوله».

ولدهشتها البالغة لف حولها ذراعيه وعانقها، وبدا لفانيسا وفجأة التوى العناق وابتعدا عن بعضهما البعض... وسادت لغة العيون بينهما. كان وجه كال مالكاً في ذلك المكان المعتم، اما وجه فانيسا فكان ساكناً وهادئاً. تكلم كال بهدوء خوفاً من ان يحطم السكينة المسيطرة، فقال:

«فانيسا... آه يا فانيسا. ماذا افعل بك الآن؟».

خرج صوتها مرتجفاً:

«دعني اذهب يا كال. دعني اذهب فوراً».

همس بنعومة قائلاً:

«لا... ليس الآن... وليس فيما بعد... هيا ادخلي الى السيارة فانت ترتجفين».

لم تستطع مقاومته هذه المرة. جلس الى جانبها وادار جهاز تدفئة السيارة ثم وضع ذراعه حول كتفيها:

«لا تتشاجري معي يا فانيسا. فأنا لا استطيع احتمال ذلك».

«انت الملهم... لست افهم ما تقصده». وتابعت وقلبها يخفق بشدة:

«نحن لا... انا اكرهك وانت تكرهني».

«لا. غير صحيح».

وتابع كلامه وهو يداعب خدها برقة:

«كنت قاسية دائماً على ازعاجي اكثر مما تتصورين... ولم ادرك السبب الا في الليلة التي اعتقدت انك هربت فيها... يا الله، لا يمكن ان تتصوري مشاعري عندما اخبرني لودي بهربك. واعتقدت فعلاً انك رحلت. وقتها عرفت... عرفت ماذا اشعر نحوك وعرفت ماذا تشعرين نحوي. فلا تحاولي النفي الآن».

«انت مجرد حيوان مخادع».

خرج صوتها ضعيفاً مخنوقاً. لكنه وصل الى مسمع كال، فضحك طويلاً.

«حيوان مخادع؟ يعجبني هذا الكلام. وفي الحقيقة انا لا ابالي بالأوصاف التي تنعتيني بها. لقد رأيت كل شيء في عينيك الليلة الماضية. ولا يمكنك انكار الواقع يا فانيسا».

ازدادت خفقات قلبها وهي تنظر مباشرة في عينيه. وعندما رأت مشاعر الحب فيهما مدت يدها لتلامس وجهه القاسي.

«آه يا كال. ارجوك سامحني. انا هاربة من...».

«الاعتراف قاس جداً، ولكن زمن الأكاذيب قد انتهى». لم تعد قادرة على اختلاق القصص، على الأقل ليس الآن وليس معه بالتحديد. تابعت كلامها قائلة:

«جئت الى هنا لأعرف جدي على حقيقته. فهذا الذي اسمع به والذي كرهت جدي، وانتبهت لأنني عرفت انه يبحث عن حفيدته. وكنت سأجعله يحبني ثم... ثم ارحل واتركه وحيداً».

«لا ترحلي. لست مضطرة».

همست بحدة:

«بل، يجب ان ارحل. لأنني اكره نفسي يجب ان ارحل. وانت ستكرهني ايضاً بعد ان انتهي من رواية قصتي. لقد احببت جدي وبدأت احبه...».

قطعت كلامها فجأة واغرقت رأسها بين كفيها عندما داهمتها الدموع المنهمرة. احست بيد كال تمتد الى رقبتها وتلامسها بتلطف ورقة. لم تعد تستطيع الاحتمال، وبحركة غريزية استدارت ودفنت رأسها في صدره. في حين احتضنها هو بذراعيه وراح يهدهدها كطفل صغير.

«لا تبكي يا حبيبتي. ارجوك لا تبكي».

«لا استطيع... لا استطيع».

«اسمعي يا فانيسا». ولكنه قبل ان يكمل اخذ نفساً عميقاً وصمت للحظات بحيث توقفت فانيسا عن النحيب:

«اسمعي. انه بحاجة اليك. الا تلاحظين ذلك. انه بحاجة ماسة الى وجودك. وهربك من حياته عمل قاس للغاية. انت ستبقين هنا حتى لو اضطررت الى استعمال القوة. ستبقين هنا وستروين لجدك سرك وتخبره الحقيقة».

رددت بصوت تخالطه العبرات:
«لا».
«بل. انا احبك ايتها المجنونة ولن اتركك ترحلين الآن».
واحتواها لصدره. فابتعدت رأسها عن صدره وقالت:
«ماذا؟».
«قلت اني احبك. فهل انت عمياء بحيث لا ترين مشاعر الحب في عيني؟».
«وأنت... ولكن ماذا عن عزة؟».
«عزة؟ لقد حولني الى عصفور في قفص منذ ستة اشهر فقط. فهي لا تهتم بشيء الا بنفسها وبمظهرها الخارجي. انها تصلح للقاءات موسمية فقط اما انت يا حبيبتي فستطيعين تجاوز معي كل شيء حتى بدون ان تحاولي».
ولم تجد نفسها جواباً بأي من عشرات الافكار التي تراودها الآن، وهكذا... وتابع كلامه وهو يحكم ذراعيه حول كتفيها وكأنه يخشى ان تهرب مرة اخرى «وانت لن ترحلي عني بعد اليوم، الا اذا اردت ان الحق بك اينما كنت».
«لا. عرفت اني احبك مساء امس على العشاء».
ابتسمت وهي تتذكر الليلة واضافت تقول:
«وبالتحديد عندما تناولنا العشاء. نظرت اليك وقتها و... صعقني الشعور بشكل مفاجئ».
«يا الهي. هل هذا هو السبب في انقطاع شهيتك عن الأكل؟» تابع ضاحكاً «اهذا هو التأثير الذي اتركه عليك؟».
اتسعت ابتسامتها وهي تقول:
«اعتقد ذلك» ثم اضافت بنعومة «قل لي يا ... متى حدث هذا، وكيف؟».
لم يكن بحاجة لسؤالها عما تقصد:
«لأن بعض الأشياء، يا صغيرتي المجنونة، تحدث هكذا. هل تذكرين يوم دخلت المكتبة وعرفت ان لورين ... حسناً، لقد حدثت نفسي كثيراً كي لا اعجب بك. لم استطع ان افهم سبب غضبي... لعلي كنت غبياً لأني ظننت هذا الشعور ينمو ويزداد وما احاول طرده لأني كنت اعرف

انك مزورة اذا صح التعبير. كان الشك يكبر يوماً بعد يوم دون ان افهم السبب، وكانت تعتريه رغبتي في احتضانك والبقاء الى جانبك. والحقيقة اني كنت افعل ذلك في احد دروس الجيدو. وكم كنت وقتها بحاجة الى السيطرة على النفس التي تتيحها رياضة الجيدو».
سألت بنعومة:
«لقد كنت قاسية معك. أليس كذلك؟».
«كيف يمكن ان اوافق على ذلك؟ اعتقد اني كنت فظاً معك يا عزيزتي. على كل الأحوال، انني انا نعرف حقيقة مشاعرنا. ... انها ... ثم انا سعيد لأني اغضب الضحكة من ... الشفاه».
«صحيح. هل فكرة ابن وضعتها؟».
سألته بلهجة آمرة، لكن عينيها لم تلمعا بالغضب هذه المرة.
«انها مخبأة في صندوق ... موضوع في مكان ما هنا بحيث لا يمكنك ... فقد انتابني احساس بأنك ستحاولين الهرب، وانا لم اتوقع ان تتصرفي ... انك من امرأة عصبية جداً».
همست بحياء:
«انا آسفة يا حبيبي».
«يجب ان تفخري بتصرفك. فانا لا اقبل مثل هذا الموقف من زوجتي».
«ماذا؟».
«وهل هذا كل ما عندك لتقوليه؟».
«اجل... وحتى التنهيد ... لست متأكدة مما سمعته».
نظر الى ساعته وقال:
«تعالي يا حبيبتي. انها السادسة تقريباً. ما رأيك لو نتسلل الى المطبخ ونرتشف بعض القهوة المنعشة، فالسيدة باركس لن تستيقظ قبل السابعة؟».
«لا بأس».
ولكنها ارادت ان تضيف شيئاً آخر، الآن وقبل ان يغادرا السيارة.
«وكان...».
«نعم؟».

«ارغب برؤية جدي على انفراد. ارجوك، فانا اريد ابلاغه الامر بنفسي».

«هل انت متأكدة؟».

«نعم. يجب ان اخبره بنفسي. اظنك تفهم الوضع!».

ابتسم لها وهما يسيران عائدين الى البيت. كانت عيناه ووجهه وكل ملامحه تنطق بالحب العميق:

«انا افهم موقفك تماماً يا حبيبتي. لكنني سوف انتظرك. لا تضطربي، يكفي ان تخبريه بطريقتك الجميلة الطيبة، وسيفهم على الفور».

«آمل ذلك».

اغلقت عينيها برهة ثم تابعت:

«لقد تركت لك رسالة مع ان الكتابة كانت صعبة. اما الآن، فانا سعيدة لانك منعتني من الرحيل. لا يمكنك ان تتصور كم انا سعيدة».

[illegible]

«هل ترين تلك التلة البعيدة؟».

نظرت فابينا الى البعيد فشاهدت تلة كبيرة تكسوها الثلوج. اما هو فتابع يقول:

«سأظل احبك ما دامت الثلوج موجودة على قمة التلة».

وضمها بين ذراعيه وغابا في عناق طويل.

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 74

السر الدفين

«الأباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»...

ينطبق هذا المثل تماما على قصة فاتيا التي اعتقدت ان جدها كان السبب في تعاسة والدها الراحل. ولم يكن هناك عليها سوى ان تنضم متنكرة في قناع فتاة تستجيب لاعلان يطلب فيه جدها من يرتب مكتبته المبعثرة...

غير ان فاتيا تلتقي كال غرين ضيف جدها وصديقه، وتكتشف بين الصحف القديمة سر والدها الراحل... فتحاول الهرب... الهرب من الماضي والهرب من كال الخشن القاسي. فهل يدور محرك سيارتها في تلك الليلة الباردة؟